الفصل الرابع عشر

أهم الأحداث ما بين الحديبية وفتح مكة

المبحث الأول

غزوة خيبر

أولاً: تاريخها وأسبابها:

ذكر ابن إسحاق [١] أنها كانت في المحرم من السنة السابعة للهجرة، وذكر الواقدي [٢] أنها كانت في صفر أو ربيع الأول من السنة السابعة للهجرة، بعد العودة من غزوة الحديبية، وذهب ابن سعد [٣] إلى أنها في جمادى الأولى سنة سبع، وقال الإمامان الزهري ومالك: إنها في محرم من السنة السادسة [٤]، وقد رجّح ابن حجر [٥] قول ابن إسحاق على قول الواقدي [٦].

لم يُظهر يهود خيبر العداء للمسلمين حتى نزل فيهم زعماء بني النضير، الذي حزّ في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم، ولم يكن الإجلاء كافياً لكسر شوكتهم، فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأبناء والأموال، وخلفهم القيان يضربن الدفوف والمزامير بزهاء وفخر ما رئي مثله في حي من الناس في زمانهم [٧].

وكان من أبرز زعماء بني النضير الذين نزلوا في خيبر سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب فلما نزلوا دان لهم أهلها [٨].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٤٥٥) ـ معلقاً.
(٢) انظر: المغازي (٢/ ٦٣٤).
(٣) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ١٠٦).
(٤) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (١/ ٣٣).
(٥) انظر: الفتح (١٦/ ٤١)، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٠٠).
(٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٠٠).
(٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣١٩).
(٨) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣١٩).

وكان تزعم هؤلاء يهود خيبر كافياً في جرها إلى الصراع والتصدي والانتقام من المسلمين، فقد كان يدفعهم حقد دفين، ورغبة قوية في العودة إلى ديارهم داخل المدينة، وكان أول تحرك قوي ما حدث في غزوة الأحزاب حيث كان لخيبر، وعلى رأسها زعماء بني النضير، دور كبير في حشد قريش والأعراب ضد المسلمين، وتسخير أموالهم في ذلك، ثم سعيهم في إقناع بني قريظة بالغدر والتعاون مع الأحزاب [١]، بل إنهم أنفقوا أموالهم واستغلوا علاقاتهم مع يهود بني قريظة من أجل نصرة الأحزاب وطعن المسلمين في ظهورهم [٢]، وهكذا أصبحت خيبر مصدر خطر كبير على المسلمين ودولتهم النامية.

تفرغ المسلمون بعد صلح الحديبية لتصفية خطر يهود خيبر الذي أصبح يهدد أمن المسلمين، ولقد تضمنت سورة الفتح التي نزلت بعد الحديبية وعداً إلهياً بفتح خيبر وحيازة أموالها غنيمة [٣] قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: ٢٠، ٢١].

ثانياً: مسير الجيش الإسلامي إلى خيبر:

سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية، على الرغم من علمهم بمنعة حصون خيبر، وشدة بأس رجالها وعتادها الحربي، وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة، فطلب منهم النبي ﷺ أن يرفقوا بأنفسهم قائلاً: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ولكن تدعون سميعاً بصيراً» [٤].

وكان سيره ﷺ بالجنود ليلاً، فقد قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً [٥] وكان عامر بن الأكوع يحدو بالقوم ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما أبقينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينة علينا ... إنا إذا صيح بنا أبينا
وبالصياح عولوا علينا [٦]

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣١٩).
(٢) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٤٩).
(٣) المصدر السابق، (١/ ٣٤٩).
(٤) البخاري، كتاب الدعوات رقم (٦٣٨٤).
(٥) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤١٩٦).
(٦) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤١٩٦).

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا السائق؟» قالوا: عامر بن الأكوع.

قال: «يرحمه الله».

قال رجل (وهو عمر بن الخطاب) [١]من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا أمتعتنا به [٢].

وعندما وصل الجيش الإسلامي بالصهباء ـ وهي من أدنى خيبر ـ صلّى العصر، ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا السويق، فأمر به فثرى، فأكل وأكل معه الصحابة، ثم قام إلى المغرب فمضمض ثم صلّى بالصحابة ولم يتوضأ [٣].

وكان ﷺ قد بعث عباد بن بشر رضي الله عنه في سرية استطلاعية، يتلقط أخبار العدو، ويستطلع إن كان هناك كمائن، فلقي في الطريق عيناً لليهود من أشجع، فقال: من أنت؟ قال: باغ ابتغى أبعرة ضلت لي، أنا على إثرها. قال عباد: ألك علم بخيبر؟ قال: عهدي بها حديث، فيم تسألني عنه؟ قال: عن اليهود؟ قال: نعم، كان كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غطفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيهم عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي لا ترام، وسلاح وطعام كثير لو حصروا لسنين لكفاهم، وماء وأتٍ يشربون في حصونهم، ما أرى لأحد بهم طاقة، فرفع عباد بن بشر السوط فضربه ضربات، وقال: ما أنت إلا عين لهم، أصدقني وإلا ضربت عنقك! فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم خائفون، وجلون لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود... وقال لي كنانة: اذهب معترضاً للطريق فإنهم لا يستنكرون مكانك، واحزرهم لنا، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا، فإنهم لن يدعوا سؤلك، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم [٤].

وعندما وصل جيش المسلمين إلى مشارف خيبر، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قفوا»، ثم قال: «اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرّها وشر أهلها، وشر ما فيها، أقدموا باسم الله»، وكان يقولها لكل قرية دخلها [٥].

ولما أدرك رسول الله ﷺ الليل أمر الجيش بالنوم على مشارف خيبر، ثم استيقظوا مبكرين، وضربوا خيامهم ومعسكرهم بوادي الرجيع، وهو وادٍ يقع بين خيبر وغطفان، حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة عطفان [٦].

---

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ٤٦٦).
(٢) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤١٩٦).
(٣) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٣٠).
(٤) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٦٤٠ ـ ٦٤١).
(٥) انظر: المستدرك (٢/ ١٠٠) قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد وأقره الذهبي.
(٦) انظر: الصراع مع اليهود (٢/ ٤٥).

ولما أصبح الصبح خرجت اليهود بمساحيهم [١] ومكاتلهم [٢]، فلما رأوا جيش المسلمين قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، أنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» [٣].

ثالثاً: وصف تساقط حصون خيبر:

هرب اليهود إلى حصونهم وحاصرهم المسلمون، وأخذوا في فتح حصونهم واحداً تلو الآخر، وكان أول ما سقط من حصونهم ناعم، والصعب بمنطقة النطاة، وأبي النزار بمنطقة الشق، وكانت هاتان المنطقتان في الشمال الشرقي من خيبر، ثم حصن القموص المنيع في منطقة الكتيبة، وهو حصن ابن أبي الحقيق، ثم أسقطوا حصني منطقة الوطيح والسلالم [٤].

وقد واجه المسلمين مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة عند فتح بعض هذه الحصون، منها حصن ناعم الذي استشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصاري، حيث ألقى عليه مرحب رحى من أعلى الحصن [٥]، والذي استغرق فتحه عشرة أيام [٦]، فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصديق، ولم يفتح الله عليه، وعندما جهد الناس، قال رسول الله ﷺ إنه: «سيدفع اللواء غداً إلى رجل يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، لا يرجع حتى تفتح له». فطابت نفوس المسلمين، فلما صلّى فجر اليوم الثالث دعا علي بن أبي طالب ﷺ ودفع إليه اللواء فحمله فتم فتح الحصن على يديه [٧]، وكان علي يشتكي من رمد في عينيه ـ عندما دعاه الرسول ﷺ ـ فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ [٨]، ولقد أوصى الرسول ﷺ علياً بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم» [٩]، وعندما سأله علي: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» [١٠].

وعندما حاصرالمسلمون هذا الحصن برز لهم سيده وبطلهم مرحب، وكان سبباً في

---

(١) المساحي: جمع ومفردها مسحاة، والمسحاة المجرفة من الحديد.
(٢) المكاتل: جمع مكتل، وهو المقطف الكبير.
(٣) البخاري، كتاب الأذان رقم (٦١٠).
(٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٥٠١).
(٥) المصدر السابق، (ص ٥٠١).
(٦) انظر: الواقدي (٢/ ٦٥٧).
(٧) انظر: المستدرك (٣/ ٣٧)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
(٨) مسلم (٤/ ١٨٧٢) رقم (٢٤٠٦).
(٩) مسلم (٢/ ١٨٧١) رقم (٢٤٠٦).
(١٠) مسلم (٢/ ١٨٧٢) رقم ٢٤٠٥).

استشهاد عامر بن الأكوع، ثم بارزه علي فقتله [١] وقيل قتله محمد بن مسلمة، مما أثّر سلبياً في معنويات اليهود ومن ثم هزيمتهم [٢].

ووردت مجموعة من روايات تخبر بأن علياً ﷺ تترس بباب عظيم، كان عند حصن ناعم، بعد أن أسقط يهودي ترسه من يده، وكلها روايات ضعيفة [٣]، وعدم الاعتماد عليها لا ينفي قوة علي وشجاعته، فيكفيه ما ثبت في ذلك وهو كثير [٤].

توجه المسلمون إلى حصن الصعب بن معاذ بعد فتح حصن ناعم، وأبلى حامل رايتهم الحباب بن المنذر بلاء حسناً حتى افتتحوه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا فيه الكثير من الطعام والمتاع، يوم كانوا في ضائقة من قلة الطعام، ثم توجهوا بعده إلى حصن قلعة الزبير ـ الذي اجتمع فيه الفارُّون من حصن ناعم والصعب وبقية ما فتح من حصن يهود ـ فحاصروه وقطعوا عنه مجرى الماء الذي يغذيه، فاضطروهم إلى النزول للقتال، فهزموهم بعد ثلاثة أيام، وبذلك تمت السيطرة على آخر حصون منطقة النطاة التي كان فيها أشد اليهود، ثم توجهوا إلى حصون منطقة الشق، وبدأوا بحصن أُبَي، فاقتحموه، وأفلت بعض مقاتلته إلى حصن نزار، وتوجه إليهم المسلمون فحاصروهم ثم افتتحوا الحصن، وفرّ بقية أهل الشق من حصونهم وتجمعوا في حصن القَمُوص المنيع، وحصن الوطيح، وحصن السُّلالَم، فحاصرهم المسلمون لمدة أربعة عشر يوماً حتى طلبوا الصلح [٥].

وهكذا فتحت خيبر عنوة [٦]، استناداً إلى النظر في مجريات الأحداث التي سقناها، وما روى البخاري[٧]، ومسلم [٨]، وأبو داود [٩] من أن رسول الله ﷺ غزا خيبر وافتتحها عنوة [١٠].

وبذلك سقطت سائر خيبر بيد المسلمين، وسارع أهل فدك في شمال خيبر إلى طلب الصلح، وأن يسيرهم ويحقن دماءهم، وبذلوا له الأموال فوافق على طلبهم [١١]، فكانت فدك

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (٥٠٢).
(٢) المصدر السابق (ص ٥٠٢).
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٤).
(٤) المصدر السابق، (١/ ٣٤).
(٥) انظر: الواقدي (٢/ ٦٥٨ ـ ٦٧١).
(٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٠٤).
(٧) المصدر السابق، (ص ٥٠٤).
(٨) مسلم (٣/ ١٤٢٧) رقم (١٣٦٥).
(٩) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٠٤).
(١٠) المصدر السابق، (ص ٥٠٤).
(١١) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٦٩٩).

خالصة لرسول الله ﷺ لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وحاصر المسلمون وادي القرى، وهي مجموعة قرى بين خيبر وتيماء ليالي [١]، ثم استسلمت، فغنم المسلمون أموالاً كثيرة وتركوا الأرض والنخل بيد اليهود وعاملهم عليها مثل خيبر وصالحت تيماء على مثل صلح خيبر ووادي القرى [٢].

وبذلك تساقطت سائر الحصون اليهودية أمام قوات المسلمين، وقد بلغ قتلى اليهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلاً [٣] وسبيت النساء والذراري، منهن صفية بنت حيي بن أحطب فأعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها [٤].

واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً فيما ذكر ابن إسحاق [٥]، وخمسة عشر فيما ذكر الواقدي [٦].

رابعاً: الأعرابي الشهيد، والراعي الأسود، وبطل إلى النار:

١ ـ الأعرابي الشهيد:

جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ فآمن به، واتبعه فقال: أهاجر معك؟ فأوصى به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر، غنم رسول الله ﷺ شيئاً فقسمه، وقسم للأعرابي، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهورهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول الله ﷺ فأخذه فجاء به للنبي ﷺ فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «قسم قسمته لك»، قال: ما على هذا اتبعك، ولكن اتبعتك على أن أُرمى هاهنا، وأشار إلى حلقه، بسهم، فأموت فأدخل الجنة، فقال: «إن تصدق الله يَصْدُقْكَ»، ثم نهض إلى قتال العدو، فأتى به إلى النبي ﷺ، وهو مقتول، فقال: «أهو هو»؟ قالوا: نعم.

قال: «صدق الله فصدقه».

فكفّنه النبي ﷺ في جبّته، ثم قدمه، فصلّى عليه، وكان من دعائه له: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك، قتل شهيداً، وأنا عليه شهيد» [٧].

٢ ـ الراعي الأسود:

وجاء عبد أسود حبشي من أهل خيبر، كان في غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا

---

(١) انظر: تاريخ خليفة ٨٥ نقلاً عن ابن إسحاق.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٥٤، ٣٥٥).

(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٠٤).

(٤) مسلم، كتاب النكاح (٢/ ١٠٤٥).

(٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٧).

(٦) انظر: المغازي (٢/ ٧٠٠).

(٧) أخرجه النسائي (٤/ ٦٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٢٩١)، والحاكم (٣/ ٥٩٥)، والبيهقي (٤/ ١٥، ١٦)، وإسناده صحيح نقلاً عن زاد المعاد (٣/ ٣٢٤).

السلاح، سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الذي يزعم أنه نبي، فوقع في نفسه ذكر النبي، فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ فقال: ماذا تقول؟ وما تدعو إليه؟ قال: «أدعو إلى الإسلام، وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وألا تعبد إلا الله»، قال العبد: فمالي إن شهدت وآمنت بالله ﷻ، قال: «لك الجنة إن مت على ذلك».

فأسلم ثم قال: يا نبي الله، إن هذه الغنم عندي أمانة، فقال رسول الله ﷺ: «أخرجها من عندك وأرمها بـ (الحصباء) فإن الله سيؤدي عنك أمانتك»، ففعل، فرجعت الغنم إلى سيدها، فعلم اليهودي أن غلامه قد أسلم، فقام رسول الله ﷺ في الناس، فوعظهم وحضّهم على الجهاد، فلما التقى المسلمون واليهود قتل ـ فيمن قتل ـ العبد الأسود، واحتمله المسلمون إلى معسكرهم، فأدخل في الفسطاط، فزعموا أن رسول الله ﷺ اطلع في الفسطاط، ثم أقبل على أصحابه، وقال: «لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى خيبر، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين، ولم يصلّ لله سجدة قط» [١].

٣ ـ بطل لكنه إلى النار:

كان في جيش المسلمين بخيبر رجل لا يدع للمشركين شاذة ولا فاذة [٢] إلا أتبعها يضربها بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه من أهل النار»، فقالوا: أينا من أهل الجنة إن كان من أهل النار؟ فقال رجل: والله لا يموت على هذه الحال أبداً، فاتبعه حتى جرح، فاشتدّت جراحته واستعجل الموت، فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فجاء رجل إلى رسول الله فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: «وما ذاك؟» فأخبره، فقال النبي ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وإنه لمن أهل النار، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة» [٣].

خامساً: قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه من الحبشة:

قدم جعفر بن أبي طالب وصحبه من مهاجري الحبشة على رسول الله يوم فتح خيبر، فقبّل رسول الله ﷺ بين عينيه والتزمه، وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»، وكان ﷺ قد أرسل في طلبهم من النجاشي، عمرو بن أمية الضمري، فحملهم في سفينتين ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر، وقد رافق جعفر في قدومه أبو موسى الأشعري ومن كان بصحبته من الأشعريين [٤]، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٢٣، ٣٢٤)، السيرة الحلبية (٣/ ٣٩).
(٢) الشاذ: الذي يفارق الجماعة، الفاذ: الذي لم يختلط بالجماعة.
(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر رقم (٤٢٠٧).
(٤) انظر: معين السيرة (ص ٣٥٣).

باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم أحدهما أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال: في بضع، وإما قال في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا السفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب، فأقمنا جميعاً، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر [١].

لقد مكث جعفر وإخوانه في الحبشة بضعة عشر عاماً، نزل خلالها قرآن كثير، ودارت معارك شتى مع الكفار، وتقلّب المسلمون قبل الهجرة العامة، وبعدها في أطوار متباينة، حتى ظن البعض أن مهاجري الحبشة ـ وقد فاتهم هذا كله ـ أقل قدراً من غيرهم [٢].

فعن أبي موسى: ..... كان أناس يقولون لنا سبقناهم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عميس على حفصة زوج النبي زائرة ـ وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر ـ فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء ابنة عميس، قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم! قال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم! فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة! وذلك في الله وفي رسول الله، وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه. فلما جاءت النبي ﷺ قالت: كذا وكذا، قال: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم ـ أهل السفينة ـ هجرتان» [٣].

فأخذت أسماء هذا الوسام ووزعته على جميع أعضاء الوفد حيث كانوا [٤]، كما قالت: يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في نفوسهم مما قال لهم النبي ﷺ [٥].

وقد أشركهم النبي ﷺ في مغانم خيبر بعد أن استأذن من الصحابة ﷺ الذين شاركوا في فتحها [٦].

سادساً: تقسيم الغنائم:

١ ـ كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرسول ﷺ غنيمة، من حيث الأراضي والنخيل والثياب والأطعمة وغير ذلك، ومن خلال وصف كتب السيرة نلاحظ أن الغنائم تتكوّن من:

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر رقم (٤٢٣٠).
(٢) انظر: فقه السيرة للغزالي (ص ٣٥٠).
(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر رقم (٤٢٣١).
(٤) انظر: فقه السيرة للغضبان (ص ٥٣٥).
(٥) مسلم، فضل الصحابة، رقم (٢٥٠٢، ٢٥٠٣).
(٦) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (٣/٩٦).

أ ـ الطعام: فقد غنم المسلمون كثيراً من الأطعمة من حصون خيبر، فقد وجدوا فيها الشحم والزيت والعسل والسمن، وغير ذلك، فأباح رسول الله ﷺ الأكل من تلك الأطعمة، ولم يخمسها [١].

ب ـ الثياب والأثاث والإبل والبقر والغنم، لقد أخذ رسول الله ﷺ خمساً ووضعه فيما وضعه الله فيه، ووزع أربعة أخماسها على المحاربين.

ج ـ السبي: لقد سبى رسول الله ﷺ كثيراً من نساء اليهود، ووزّع السبي على المسلمين، فهو غنيمة ويأخذ حكم الغنيمة.

د ـ أما الأراضي والنخيل فقد قسّمها النبي إلى ستة وثلاثين سهماً، جمع لكل سهم مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله ﷺ وللمسلمين النصف من ذلك، وهو ألف وثمانمائة سهم، ووزع النصف الآخر، وهو ألف وثمانمائة سهم لنوائبه وما ينزل به من أمور المسلمين [٢].

هـ ـ وكان من بين ما غنم المسلمون من يهود خيبر عدة صحف من التوراة، فطلب اليهود ردّها، فأمر ﷺ بتسليمها إليهم، ولم يصنع ﷺ ما صنع الرومان حينما فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم، ولا ما صنع النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة [٣].

وقد أبقى رسول الله ﷺ يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها، وينفقوا عليها من أموالهم ولهم نصف ثمارها، على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى أرادوا، وكان اليهود قد بادروا بعرض ذلك على النبي ﷺ وقالوا: نحن أعلم بالأرض منكم فوافق على ذلك بعد أن همّ بإخراجهم منها [٤].

وقد اشترط عليهم أن يجليهم عنها متى شاء، وهنا تظهر براعة سياسيّة جديدة في عقد الشروط، فإن بقاء اليهود في الأرض يفلحونها يوفر للمسلمين الجنود المجاهدين في سبيل الله، ومن جهة أخرى فإن اليهود هم أصحاب الأرض، وهم أدرى بفلاحتها من غيرهم، فبقاؤهم فيها يعطي ثمرة أكثر وأجود، وبخاصة أنهم لن يأخذوا أجراً ولكنهم سيأخذون نصف ما يخرج من الأرض قلّ أو كثر.

وقد ضمن الرسول ـ بشرط إجلائهم متى شاء المسلمون ـ إخضاعهم وكسر شوكتهم،

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (٣/ ١٤٠).
(٢) المصدر السابق، (٣/ ١٤١، ١٤٢).
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤١٩).
(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٨).

لأنهم يعلمون إذا فعلوا شيئاً يضر بالمسلمين سيطردونهم منها، ولا يعودون إليها أبداً.

وقد حدث ذلك فعلاً في عهد سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، حيث اعتدوا على عبد الله بن عمر، ففدعوا يديه من المرفقين، وكانوا قبل ذلك في عهد الرسول ﷺ اعتدوا على عبد الله بن سهل فقتلوه، فلما تحقق عمر من غدرهم وخيانتهم أمر بإجلائهم [١].

وحاول يهود خيبر أن يخفوا الفضة والذهب، وغيبوا مسكاً [٢] لحيي بن أخطب، وكان قد قتل مع بني قريظة، وكان احتمله معه يوم بني النضير حين أجليت النضير، فسأل رسول الله ﷺ سعية عم حيي بن أخطب: «أين مسك حيي بن أخطب؟»

قال: أذهبته الحرب والنفقات [٣].

فقال رسول الله ﷺ: «العهد قريب والمال أكثر من ذلك»، فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير بن العوام فمسه بعذاب، وقد كان حُيِيٌّ قبل ذلك دخل خربة، فقال عمه: قد رأيت حُيَيًّا يطوف في خربة هاهنا،فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة [٤]، وبعد الاتفاق الذي تم بين رسول الله ﷺ ويهود خيبر على إصلاح الأرض جعل رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة، يأتيهم كل عام فيخرصها عليهم، ثم يضمّنهم الشرط، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه [٥]، وأرادوا أن يُرْشُوه فقال: يا أعداء الله تطعموني السُّحت؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليَّ، ولأنتم أبغض الناس إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض [٦].

لقد أصبحت خيبر ملكاً للمسلمين وصارت مورداً مهماً لهم، قال ابن عمر ﷺ: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر [٧]، وقد تحسن الوضع الاقتصادي بعد خيبر، ورد المهاجرون المنائح التي أعطاهم إياها الأنصار [٨] من النخل.

سابعاً: زواج رسول الله من صفية بنت حيي بن أخطب:

لما فتح المسلمون القموص ـ حصن بني أبي الحقيق ـ كانت صفية في السبي، فأعطاها

---

(١) انظر: تأملات في سيرة الرسول، لمحمد سيد الوكيل (ص ٢٢٨، ٢٢٩).
(٢) المسك: الجلد عامة أو جلد السلخة خاصة (السلخة ولد الشاة).
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٦).
(٤) تاريخ الإسلام للذهبي؛ المغازي (ص ٤٢٤).
(٥) الخرص: الحَرَز والحدس والتخمين، وخرَّص العدد: قدره تقديراً بظن لا إحاطة.
(٦) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي؛ المغازي (ص ٤٢٤).
(٧) البخاري، كتاب المغازي، غزوة خيبر رقم (٤٢٤٣).
(٨) انظر: معين السيرة (ص ٣٥٢).

دحية الكلبي، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قومها، وهي ما تصلح إلا لك، فاستحسن النبي ﷺ ما أشار به الرجل، وقال لدحية: «خذ جارية من السبي غيرها» [١]، ثم أخذها رسول الله ﷺ وأعتقها وجعل عتقها صداقها [٢]، ثم تزوجها بعد أن طهرت من حيضتها [٣] وبعد أن أسلمت.

ولم يخرج النبي ﷺ من خيبر، حتى طهرت صفية من حيضها، فحملها وراءه، فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرّس بها فأبت عليه، فوجد في نفسه، فلما كان بالصهباء نزل بها هناك فمشطتها أم سليم، وعطرتها، وزفتها إلى النبي ﷺ وبنى بها، فسألها: «ما حملك على الامتناع من النزول أولاً» فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود، فعظمت في نفسه، ومكث رسول الله بالصهباء ثلاثة أيام، وأولم عليها ودعا المسلمين، وما كان فيها من لحم، وإنما التمر والأقط والسمن، فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين، أو ما ملكت يمينه، فلما ارتحل وطأ له خلفه ومدّ عليها الحجاب، فأيقنوا إنها إحدى أمهات المؤمنين [٤].

وقد كانت أم المؤمنين صفية بنت حيي قد رأت رؤية، فقد روى البيهقي - رحمه الله - بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما في حديث طويل قال: ورأى رسول الله ﷺ بعين صفية خضرة، فقال: يا صفية ما هذه الخضرة؟ فقالت: كانت رأسي في حجر ابن حقيق، وأنا نائمة، فرأيت كأن قمراً وقع في حجري، فأخبرته بذلك فلطمني، وقال: تمنين ملك يثرب [٥].

وهكذا صدق الله رؤيا صفية رضي الله عنها، وأكرمها بالزواج من رسوله ﷺ، وأعتقها من النار، وجعلها أماً للمؤمنين، وزوجاً في الجنة لخاتم الأنبياء والمرسلين [٦]. وقد أكرمها رسول الله ﷺ غاية الإكرام، وكان يجلس عند بعيره فيضع ركبته لتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب، وقد بلغ من أدبها أنها كانت تأبى أن تضع رجلها على ركبته، فكانت تضع ركبتها على ركبته وتركب [٧].

وهذه صفية رضي الله عنها تحدّثنا عن خلق رسول الله ﷺ فتقول: ما رأيت أحداً قط أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ، لقد رأيته ركب بي في خيبر، وأنا على عجر ناقته ليلاً، فجعلت أنعس،

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٣).
(٢) المصدر السابق، (٢/ ٣٨٣).
(٣) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٠١).
(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٤).
(٥) انظر: السنن الكبرى (٩/ ١٣٨) نقلاً عن الصراع مع اليهود (٣/ ١٠٣).
(٦) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٢٢).
(٧) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٤).

فتضرب رأسي مؤخرة الرحل، فيمسني بيده، ويقول: «يا هذه مهلاً [١]»، وعن صفية ﵂ أنها بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله ﷺ من صفية، نحن أزواجه وبنات عمه، فدخل عليها ﷺ فأخبرته، فقال: «ألا قلت وكيف تكونان خيراً مني، وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى» [٢].

لقد تأثرت صفية بأخلاق رسول الله ﷺ، وأصبح ﷺ أحب إليها من أبيها وزوجها والناس أجمعين، بل أصبحت أحب إليها من نفسها، تفديه بكل ما تملك حتى نفسها، وإذا ألم به مرض تمنت أن يكون فيها، وأن يكون رسول الله ﷺ سليماً معافى، فقد أخرج ابن سعد ـ ﵀ ـ بإسناد حسن عن زيد بن أسلم ﵁ قال: اجتمع نساؤه ﷺ في مرضه الذي توفى فيه، فقالت صفية ﵂: إني والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي، فغمز بها أزواجه، فأبصرهن رسول الله ﷺ فقال: «مضمضن»، فقلن: من أي شيء؟ فقال: «من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة» [٣]. ومما له صلة بزواج رسول الله ﷺ بصفية بنت حيي، حراسة أبي أيوب الأنصاري لرسول الله يوم أن دخل بصفية، فعن ابن إسحاق أنه قال: ولما أعرس رسول الله ﷺ بصفية بخيبر، أو ببعض الطريق... فبات بها رسول الله في قبة له، وبات أبو أيوب خالد بن زيد، أخو بني النجار متوشحاً سيفه، يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله ﷺ فلما رأى مكانه، قال: «مالك يا أبا أيوب؟» قال: يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك [٤]، فسُرَّ رسول الله ﷺ بعمله الذي ينبىء على غاية الحب، والإيمان، وقال: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحرسني» [٥] وكان زواج رسول الله ﷺ بصفية فيه حكمة عظيمة فهو لم يرد بزواجه منها قضاء شهوة، أو إشباعاً للغريزة ـ كما يزعم الأفاكون ـ وإنما أراد إعزازها وتكريمها، وصيانتها من أن تفترش لرجل لا يعرف لها شرفها ونسبها في قومها، وهذا إلى ما فيه من العزاء لها، فقد قُتل أبوها من قبل وزوجها وكثير من قومها، ولم يكن هناك أجمل مما صنعه الرسول ﷺ معها، كما أن فيه رباط المصاهرة بين النبي واليهود، عسى أن يكون هذا ما يخفف من عدائهم للإسلام والانضواء تحت لوائه، والحد من كرهم وسعيهم بالفساد [٦]. وكانت أم المؤمنين صفية عاقلة وحليمة وصادقة، يروى أن جارية لها أتت عمر بن الخطاب ﵁ فقالت: إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود، فبعث إليها فسألها عن ذلك، فقالت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً أصلها، فقبل منها، ثم قالت للجارية: ما حملك على هذا؟ قالت: الشيطان، فقالت لها: اذهبي فأنت حرة.

---

(١) انظر: السيرة الحلبية (٣/ ٤٥).
(٢) انظر: شرح المواهب اللدنية (٢/ ٢٣٣).
(٣) المصدر السابق، (٢/ ٢٣٣).
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٢٨).
(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٥).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٥).

وكانت وفاتها في رمضان سنة خمسين للهجرة في زمن معاوية، وقيل سنة اثنتين وخمسين، رضي الله عنها وأرضاها [١].

ثامناً: محاولة أثيمة لليهود... الشاة المسمومة:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: لما فتحت خيبر، أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود»، فجُمِعُوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟»

فقالوا: نعم يا أبا القاسم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟».

قالوا: فلان.

فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم بل أبوكم فلان».

قالوا: صدقت.

قال: «أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟».

فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟».

فقالوا: نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسئوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدا».

ثم قال: «أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟».

فقالوا: نعم.

قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سُمًّا».

فقالوا: نعم.

قال: «ما حملكم على ذلك؟».

قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح وإن كنت نبياً لم يضرك [٢].

قال صاحب بلوغ الأماني من الشاة المسمومة: أهدتها إليه زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم، وكانت سألت أي عضو من الشاة أحب إليه؟ فقيل: الذراع، فأكثرت فيها من السم، فلما تناول الذراع لاك منها مضغة، ولم يسغها، وأكل منها معه بشر بن البراء فأساغ لقمة ومات منها [٣].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٥).

(٢) البخاري، كتاب الجهاد والسير (٤/ ٧٩) رقم (٣١٦٩).

(٣) انظر: بلوغ الأماني بحاشية الفتح الرباني (٢١/ ١٢٣).

وفي مغازي عروة: فتناول الذراع فانتهش منها، وتناول بشر عظماً آخر، فانتهش منه، فلما أرغم رسول الله ﷺ، أرغم بشر ما في فيه، فقال رسول الله: «ارفعوا أيديكم، فإن كتف الشاة تخبرني أني قد بغيت فيها»، فقال بشر بن البراء: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي التي أكلت، ولم يمنعني أن ألفظها إلا أني كرهت أن أنغص طعامك، فلما أكلت ما في فيك لم أرغب بنفسي عن نفسك، ورجوت أن لا تكون رغمتها وفيها بغي [١].

وقال ابن القيم: وجيء بالمرأة إلى رسول الله، فقالت: أردت قتلك، فقال: «ما كان الله ليسلطك عليَّ»، قالوا: ألا تقتلها؟ قال: «لا»، ولم يتعرض لها، ولم يعاقبها، واحتجم على الكاهل، وأمر من أكل منها فاحتجم، فمات بعضهم [٢].

وقد اختلف في قتل المرأة، والصحيح أنه لما مات بشر قتلها [٣]. ولقد كان السم الذي وضعته اليهودية قوياً جداً، إذ مات بشر بن البراء فوراً وبقي رسول الله ﷺ يعاوده ألم السم حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة وتركها على المحجَّة البيضاء ليلها كنهارها [٤]، وقد روى الإمام البخاري ح في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرض موته الذي مات فيه: «يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري [٥] من ذلك السم» [٦].

تاسعاً: الحجاج بن علاط السلمي وإرجاع أمواله من مكة:

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لما افتتح رسول الله ﷺ خيبر، قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله إن لي بمكة مالاً وإن لي بها أهلاً، وإني أريد أن أكتبهم، فأنا في حل إن أنا نلت منك، وقلت شيئاً؟ فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما يشاء، فأتى امرأته حين قدم، فقال: اجمعي لي ما كان عندك، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم قد استبيحوا، أو أصبت أموالهم، قال: ففشا ذلك في مكة فانقمع المسلمون، وأظهر المشركون فرحاً وسروراً، قال: وبلغ الخبر العباس رضي الله عنه فقعد، وجعل لا يستطيع أن يقوم.

قال معمر: فأخبرني عثمان الجزري عن مقسم قال: فأخذ ابناً له يشبه رسول الله ﷺ يقال له، قثم، فاستلقى فوضعه على صدره وهو يقول:

---

(١) انظر: مغازي رسول الله، لعروة بن الزبير، (ص ١٩٨).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٣٦).
(٣) المصدر السابق، (٣/ ٣٣٦).
(٤) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٢١).
(٥) أبهري: عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.
(٦) صحيح البخاري بشرح فتح الباري (٩/ ١٥٩ ـ ١٩٦) طبعة الحلبي.

حبَّى قثم، حبَّى قثم شبيه ذي الأنف الأشم
نبي رب ذي النعم برغم أنف من رغم

قال ثابت بن أنس: ثم أرسل غلاماً له إلى الحجاج فقال: ويلك ما جئت به؟ وماذا تقول؟ فما وعد الله خيراً مما جئت به، قال: فقال الحجاج بن علاط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل السلام، وقل له: فيخل لي في بعض بيوته لآتيه، فإن الخبر على ما يسره، فجاءه غلامه، فلما بلغ باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل، قال: فوثب العباس فرحاً، حتى قبّل بين عينيه، فأخبره بما قال الحجاج، فأعتقه، قال: ثم جاء الحجاج فأخبره أن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر، وغنم أموالهم، وجرت سهام الله في أموالهم، واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي، فأخذها لنفسه وخيرها أن يعتقها، وتكون زوجته [١]، ولكني جئت لمالي، وإني استأذنت النبي ﷺ فأذن لي، فأخف عليّ يا أبا الفضل ثلاثاً، ثم أذكُر ما شئت [٢]. فجمعت امرأته ما كان عندها من حلي ومتاع فجمعه، فدفعته إليه ثم انشمر به، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج، فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته أنه ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل، لقد شق علينا الذي بلغك، قال: أجل، لا يخزيني الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا، فتح الله خيبر على رسول الله ﷺ، وجرت فيها سهام الله، واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي لنفسه، فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي به، قالت: أظنك والله صادقاً، قال: فإني صادق، الأمر على ما أخبرتك فقال: ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش، وهم يقولون إذ مر بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل، قال لهم: لم يصبني إلا خير بحمد الله، قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسوله ﷺ، وجرت فيها سهام الله، واصطفى صفية لنفسه وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثاً، وإنما جاء ليأخذ ماله، وما كان له من شيء هاهنا، ثم يذهب، قال: فردّ الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئباً حتى أتوا العباس، فأخبرهم الخبر فسُرَّ المسلمون، وردّ الله ـ تبارك وتعالى ـ ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين [٣]. وفي هذا الخبر فقه غزير منه: جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره، إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير، إذا كان يُتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٤٥٩).
(٢) انظر: تاريخ الذهبي، المغازي (ص ٤٣٩).
(٣) أخرجه أحمد في المسند: (٣/ ١٣٨ ـ ١٣٩)، عبد الرزاق في المصنف رقم (٩٧٧١)، وأبو يعلى برقم (٣٤٧٩)، والبيهقي في السنن (٩/ ١٥١)، والدلائل (٤/ ٥٢٦٦ ـ ٥٢٦٧) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٥٤ ـ ١٥٥)، رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار والطبراني، ورجاله رجال الصحيح، وقال ابن كثير في البداية (٤/ ٢٣) عن سند أحمد: وهذا الإسناد على شرط الشيخين، نقلاً عن صحيح السيرة النبوية (ص ٤٦٠).

الحجاج بن علاط على المسلمين، حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت المسلمين من ذلك الكذب، وأما ما نال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن، بمفسدة فيسير في جنب المصلحة التي حصلت بالكذب، ولا سيما تكميل الفرح والسرور، وزيادة الإيمان الذي حصل بالخبر الصادق بعد هذا الكذب، فكان الكذب سبباً في حصول هذه المصلحة الراجحة.

عاشراً: بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالغزوة:

وردت في غزوة خيبر أحكام شرعية كثيرة منها:

١ ـ تحريم أكل لحوم الحمر الأنسية:

عن ابن عمر ﷺ: أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن أكل الثوم، وعن لحوم الحمر الأهلية [١].

٢ ـ حرمة وطء السبايا الحوامل:

قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسق ماءه زرع غيره» [٢].

٣ ـ حرمة وطء السبايا غير الحوامل قبل استبراء الرحم:

قال رسول الله ﷺ: «ولا يحل لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها» [٣].

والاستبراء إنما يكون بأن تطهر من حيضة واحدة فقط ولا تجب عليها العدة، وإن كانت متزوجة من كافر سواء مات أو بقي حياً، لأن العدة وفاء للزوج الميت وحداد عليه، ولا يحد على الكافر كما علمت [٤].

٤ ـ حرمة ربا الفضل:

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر، فجاءه بتمر جنيب، فقال رسول الله ﷺ: «أَكُلُّ تمر خيبر هكذا؟» فقال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والثلاثة، فقال: «لا تفعل، بِعْ الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيباً» [٥].

فالتفاضل مع اتحاد الجنس هو ربا الفضل، إذ اشترى صاعاً بأكثر من صاع، فالزيادة هنا

---

(١) انظر: زاد المعاد (٤/ ١٢٢ ـ ١٢٣) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٢١٥).
(٢) انظر: الطبقات (٢/ ١١٣).
(٣) انظر: الروض الأنف (٤/ ٤١) ورواه أبو داود رقم (٢١٥٨).
(٤) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٣٤).
(٥) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٢٤٤).

هي الربا، وهذا محرم كما رأيت، إذ نهى النبي ﷺ عن ذلك، وأرشد إلى الحل السليم بأن يبيع ما لديه من تمر، ثم يشتري بما لديه من نقود ما يشتهي من تمر، لأن الحاجة قد تدفع صاحبها إلى قبول الربا [١].

٥ ـ حرمة بيع الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين:

روي عن عبادة بن الصامت، أنه قال: نهانا رسول الله يوم خيبر أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين، وقال: «ابتاعوا تبر الذهب بالورق والعين، وتبر الفضة بالذهب والعين» [٢].

والمراد من الحديث أن يباع الذهب بالذهب مثلاً بمثل، والفضة بالفضة مثلاً بمثل، بلا زيادة ولا نقص، وعندما يقابل الذهب بالفضة لا تشترك المماثلة، كما هو معلوم، وثابت في الصحاح [٣].

٦ ـ مشروعية المساقاة والمزارعة:

عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: أعطى النبي ﷺ خيبر اليهود أن يعملوها ويزرعوها، ولهم شطر ما يخرج منها [٤].

وقد تساءل بعض الباحثين: لِمَ جاءت أحكام هذه البيوع في خيبر وما الحكمة من ذلك؟

وأجاب الشيخ محمد أبو زهرة على هذا فقال: إن فتح خيبر كان فتحاً جديداً بالنسبة للعلاقات المالية التي يجري في ظلها التبادل المالي، فكانت فيها شرعية المزارعة والمساقاة، ولم تكن تجري كثيراً في يثرب [٥].

٧ ـ حل أكل لحوم الخيل:

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية، ورخَّص في الخيل [٦].

٨ ـ تحريم المتعة:

عن علي ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (٣/ ١٣٤).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام مع الروض الأنف (٤/ ٤١).
(٣) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ٣٢١).
(٤) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٢٤٨).
(٥) انظر: خاتم النبيين (٢/ ١١٠٤)، الصراع مع اليهود (٣/ ١٣٦).
(٦) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٢١٩).

الحمر الأنسية [١].

٩ ـ مشاركة المرأة في غزوة خيبر:

روت أمية بنت أبي الصلت عن امرأة من بني غفار قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار فقلن: يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا ـ وهو السير إلى خيبر ـ فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا، فقال: على بركة الله، قالت: فخرجنا معه، قالت: فوالله لنزل رسول الله ﷺ إلى الصبح ونزلت عن حقيبة رحله، قالت: وإذا بها دم منيّ ـ وكانت أول حيضة حضتها ـ قالت: فتقبضت إلى الناقة واستحييت، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بي ورأى الدم، قال: «مالكِ؟ لعلك نفستِ؟» قالت: قلت: نعم، قال: «فأصلحي من نفسك ثم خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحاً ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم، ثم عودي لمركبك»، قالت: فلما فتح الله خيبر رضخ لنا من الفيء وأخذ هذه القلادة التي ترين في عنقي فأعطانيها وعلقها بيده في عنقي، فوالله لا تفارقني أبداً [٢]، وكانت في عنقها حتى ماتت، ثم أوصت أن تدفن معها. قالت: وكانت لا تطهر من حيضها إلا جعلت في طهرها ملحاً، وأوصت به أن يجعل في غسلها حين ماتت [٣].

وهي صورة حية أمام كل فتاة مسلمة، تحرص على أن تشارك في أجر الجهاد مع المسلمين [٤].

وهكذا كانت حياة الرسول ﷺ تعليماً وتربية للأمة في السلم والحرب، على معاني العقيدة، وحقيقة العبادة، وهذا غيض من فيض، وجزء من كل.

هذا وقد أحدث فتح خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء دوياً هائلاً في الجزيرة العربية، بين مختلف القبائل، وقد أصيبت قريش بالغيظ والكآبة، إذ لم تكن تتوقع ذلك، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر، وكثرة مقاتليهم ووفرة سلاحهم ومؤونتهم ومتاعهم [٥]، أما القبائل العربية الأخرى المناصرة لقريش فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر وخذلها انتصار المسلمين الساحق، ولذلك فإنها جنحت إلى مسالمة المسلمين وموادعتهم، بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم، مما فتح الباب واسعاً لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، بعد أن تعززت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم، إلى جانب ما تحقق لهم من خير وتعزيز لوضعهم الاقتصادي [٦].

---

(١) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٢١٦).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٠٥).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٧٢، ٣٧٣).
(٤) انظر: فقه السيرة لمنير الغضبان (ص ٥٣٤).
(٥) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٥٣).
(٦) المصدر السابق، (١/ ٣٥٣).

واستمرت حركة السرايا بعد خيبر، وكانت كثيرة، وأمَّر عليها ﷺ كبار الصحابة، وكان في بعضها قتال، ولم يكن في بعضها قتال [١].

المبحث الثاني

دعوة الملوك والأمراء

أولاً: كان صلح الحديبية إيذاناً ببداية المد الإسلامي:

فقد انساح هذا المد إلى أطراف الجزيرة العربية بل تجاوزها إلى ما وراء حدود الجزيرة العربية، فمنذ (أن عقد الرسول ﷺ صلح الحديبية مع قريش، وما تلا ذلك من إخضاع يهود شمال الحجاز في خيبر ووادي القرى وتيماء وفدك، إلى سيادة الإسلام، فإن الرسول ﷺ لم يأل جهداً لنشر الإسلام خارج حدود الحجاز وكذلك خارج حدود الجزيرة العربية، وقد عبّر عليه الصلاة والسلام ـ عن هذا المنهج قولاً وعملاً من خلال إرساله عدداً من الرسل والمبعوثين إلى أمراء أطراف الجزيرة العربية، وإلى ملوك العالم المعاصر خارج الجزيرة العربية.

وتُعَدُّ هذه الخطوة نقطة تحول هامة في تاريخ العرب والإسلام، ليس لأن الرسول سوف يوحد عرب الجزيرة العربية تحت راية الإسلام فحسب، ولكن لأن هؤلاء العرب بعد أن اعتنقوا الإسلام وتمثلوا رسالة السماء، أنيط بهم حمل الدعوة الإسلامية إلى البشرية كافة) [٢].

ويشير المنهج النبوي في دعوة الزعماء والملوك إلى ما يجب أن تكون عليه وسائل الدعوة، فإلى جانب دعوة الأمراء والشعوب، اختار الرسول ﷺ أسلوباً جديداً من أساليب الدعوة؛ وهو مراسلة الملوك ورؤساء القبائل، وكان لأسلوب إرسال الرسائل إلى الملوك والأمراء أثر بارز في دخول بعضهم الإسلام وإظهار الود من البعض الآخر، كما كشفت هذه الرسائل مواقف بعض الملوك والأمراء من الدعوة الإسلامية ودولتها في المدينة، وبذلك حققت هذه الرسائل نتائج كثيرة، واستطاعت الدولة الإسلامية من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرسائل أن تنتهج نهجاً سياسياً وعسكرياً واضحاً ومتميزاً [٣] وإليك أهم هذه الرسائل:

١ ـ فقد وردت رواية صحيحة [٤]، تضمّنت نص كتاب النبي ﷺ الذي بعثه مع دحية الكلبي إلى هرقل عظيم الروم [٥] وذلك في مدة هدنة الحديبية وهو كما يلي:

---

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٢٢١).
(٢) انظر: السفارات النبوية، د. محمد العقيلي (ص ١٥).
(٣) انظر: العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، د. سعيد المهجر (ص ١١٢).
(٤) مسلم، (٣/ ١٣٩٣ ـ ١٣٩٧) قم (١٧٧٣).
(٥) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٤٤) اعتمدت عليه في توثيق مصادر الرسائل.

(بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى: أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيِّين: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[1] [آل عِمرَان: ٦٤] .

ولقد تسلَّم هرقل رسالة النبي ﷺ ودقق في الأمر، كما في الحديث الطويل المشهور بين أبي سفيان وهرقل المروي في الصحيحين حين سأله عن أحوال النبي، وقال بعد ذلك لأبي سفيان: (إن كان ما تقول فيه حقاً فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه) [2].

٢ - أرسل النبي ﷺ بكتاب إلى كسرى ملك الامبراطورية الفارسية، مع عبد الله بن حذافة السهمي، (أمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين [3]، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يُمَزَّقُوا كُلَّ ممزق) [4]، ونص الرسالة كما أورده الطبري كالتالي:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلى الناس كافة، لينذر من كان حياً، أسلم تسلم، فإن أبيت عليك إثم المجوس) [5].

٣ - أما كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة فقد أرسله مع عمرو بن أمية الضمري، وقد جاء في الكتاب:

(بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت به، فخلقه من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة عن طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله ـ ﷻ ـ وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى) [6].

---

(١) مسلم شرح النووي، كتاب الجهاد، كتب النبي (١٢/١٠٧).
(٢) مسلم (٣/ ١٣٩٣) رقم (١٧٧٣).
(٣) شرح المواهب اللدنية (٣/ ٣٤١).
(٤) البخاري مع فتح الباري (٨/ ٢٦) رقم (٤٤٢٤)، وكانت الرسالة في محرم سنة ٧ هـ كما في زاد المعاد.
(٥) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٥٤ ـ ٦٥٥).
(٦) انظر: نصب الراية للزيلعي (٤/ ٤٢١) نقلاً عن نضرة النعيم (١/ ٣٤٦).

٤ ـ أما كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس حاكم مصر [١]، وكذلك رد المقوقس إليه [٢]، فلم تثبت من طرق صحيحة، ولا يعني ذلك نفي إرسال الكتاب إليه، كما أن ذلك لا يعني الطعن بصحة النصوص من الناحية التاريخية، فربما تكون صحيحة من حيث الشكل والمضمون غير أنها لا يمكن أن يحتج بها في السياسة الشرعية [٣]، فلقد أورد محمد بن سعد في طبقاته [٤] أن النبي ﷺ بعث إلى المقوقس (جُريج بن مينا) ملك الإسكندرية وعظيم القبط، كتاباً مع حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، وأنه قال خيراً وقارب الأمر، غير أنه لم يسلم وأهدى إلى النبي ﷺ عدة هدايا كان بينها مارية القبطية، وأنه لما ورد جواب المقوقس إلى النبي ﷺ قال: «ضنَّ الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه» [٥].

٥ ـ وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب، أخا بني أسد بن خزيمة، برسالة إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق [٦]، حين عودته والمسلمين من الحديبية، وقد تضمن نص الرسالة قوله: «سلام على من اتبع الهدى، وآمن به، إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك به يُبقى لك ملكك» [٧].

٦ ـ وأرسل رسول الله ﷺ سليط بن عمرو العامري بكتاب إلى هوذة بن علي الحنفي [٨] عند مقدمه من الحديبية، وقد اشترط هوذة الحنفي على الرسول ﷺ بعد قراءته رسالته إليه أن يجعل له بعض الأمر معه، فرفض النبي ﷺ أن يقبل ذلك [٩].

٧ ـ وأرسل ﷺ أبا العلاء الحضرمي [١٠] بكتابه إلى المنذر بن ساوى العبدي، أمير البحرين بعد انصرافه من الحديبية، ونقلت المصادر التاريخية أن المنذر قد استجاب لكتاب النبي ﷺ فأسلم وأسلم معه جميع العرب بالبحرين، فأما أهل البلاد من اليهود والمجوس فإنهم صالحوا العلاء والمنذر على الجزية من كل حامل دينار [١١]، ونقل أبو عبيد القاسم بن سلام نص كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى برواية عروة بن الزبير، وجاء فيه:

---

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٤٦).
(٢) المصدر السابق، (١/ ٣٤٦).
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٥٩).
(٤) انظر: الطبقات الكبرى (١/ ٢٦٠ ـ ٢٦١).
(٥) البداية والنهاية (٥/ ٣٤٠).
(٦) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٥٢).
(٧) المصدر السابق، (٢/ ٦٥٢).
(٨) كان صاحب اليمامة، ومات بعد فتح مكة بقليل.
(٩) انظر: نصب الراية (٤/ ٤٢٥)؛ إعلام السائلين، ابن طولون (ص ١٠٥، ١٠٧).
(١٠) انظر: صبح الأعشى القلقشندي (٦/ ٣٦٨).
(١١) الزيلعي تخريج أحاديث الهداية (٤/ ٤١٩ ـ ٤٢٠).

(سلام أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن من صلّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله، وذمة الرسول، فمن أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ومن أبى فإن الجزية عليه) [١].

وفي ذي القعدة سنة ٨ هـ بعث النبي ﷺ عمرو بن العاص بكتابه إلى جيفَر، وعبد ابني الجلندي الأزديين بعمان [٢]. وجاء فيه: (من محمد النبي رسول الله لعباد الله الأسبذيين ملوك عمان، وأسد عمان، ومن كان منهم بالبحرين إنهم إن آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطاعوا الله ورسوله، وأعطوا حق النبي ﷺ، ونسكوا نسك المؤمنين، فإنهم آمنون وإن لهم ما أسلموا عليه، غير أن مال بيت النار ثنياً للّه ورسوله، وأن عشور التمر صدقة، ونصف عشور الحب، وأن للمسلمين نصرهم ونصحهم، وأن لهم على المسلمين مثل ذلك، وأن لهم أرحاءهم يطحنون بها ما شاءوا) [٣].

وأوردت المصادر بعد ذلك عدداً كبيراً من المرويات عن رسائل أخرى لم تثبت من الناحية الحديثية [٤].

ثانياً: دروس وعِبَر وفوائد:

١ ـ الأريسيون:

وردت كلمة «الأريسيين» أو «اليريسيين» ـ على اختلاف الروايات ـ في الكتاب الذي وجّه إلى (هرقل) وحده، ولم ترد في كتاب من الكتب التي أرسلت إلى غيره، واختلف علماء الحديث واللغة في مدلول هذه الكلمة، فالقول المشهور أن «الأريسيين» جمع «أريسي» وهم الخول، والخدم والأكارون [٥].

وذهب العلامة أبو الحسن الندوي إلى أن المراد بالأريسيين هم أتباع «أريوس» المصري، وهو مؤسس فرقة مسيحية كان لها دور كبير في تاريخ العقائد المسيحية والإصلاح الديني، وقد شغلت الدولة البيزنطية والكنيسة المسيحية زمناً طويلاً، و«أريوس» هو الذي نادى بالتوحيد، والتمييز بين الخالق والمخلوق والأب والابن ـ على حد تعبير المسيحيين ـ لعدة قرون [٦].

ودامت عقيدة «أريوس» ودعوته تصارعان الدعوة المكشوفة إلى تأليه المسيح وتسويته بالإله الواحد الصمد، وكانت الحرب سجالاً، وقد دان بهذه العقيدة عدد كبير من النصارى في الولايات الشرقية من المملكة البيزنطية إلى أن عقد تيوسورس الكبير مجمعاً مسيحياً في القسطنطينية، قضى بألوهية المسيح وأبنيته، وقضى هذا الإعلان على العقيدة التي دعا إليها

---

(١) الأموال لأبي عبيد (ص ٢٨).
(٢) انظر: صبح الأعشى (٦/ ٣٧٦).
(٣) انظر: الأموال لأبي عبيد (ص ٢٨، ٢٩).
(٤) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٤٨).
(٥) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٠٤).
(٦) المصدر السابق، (ص ٣٠٥).

«أريوس» واختفت، ولكنها عاشت بعد ذلك، ودانت بها طائفة من النصارى، اشتهرت بالفرقة الأريسية أو الأريسيين، فمن المرجح المعقول أن النبي ﷺ إنما عنى هذه الفرقة بقوله: (فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين) فإنها هي القائمة بالتوحيد النسبي في العالم المسيحي الذي تتزعمه الدولة البيزنطية العظمى، التي كان على رأسها (هرقل) [١].

وقد تحدث الإمام أبو جعفر الطحاوي عن هذه الفرقة فقال: وقد ذكر بعض أهل المعرفة بهذه المعاني أن في رهط هرقل فرقة تعرف بالأروسية، توحد الله، وتعترف بعبودية المسيح له ﷻ ولا تقول شيئاً مما يقول النصارى في ربوبيته وتؤمن بنبوته، فإنها تمسك بدين المسيح مؤمنة بما في إنجيله جاحدة لما يقوله النصارى سوى ذلك، وإذا كان ذلك كذلك جاز أن يقال لهذه الفرقة «الأريسيون» في الرفع و«الأريسيين» في النصب والجر، كما ذهب إليه أصحاب الحديث [٢].

٢ ـ اعتبارات حكيمة خاصة بالملوك:

في رسائل رسول الله ﷺ للملوك فوارق دقيقة مؤسسة على حكمة الدعوة، روعي فيها ما يمتاز به هؤلاء الملوك في العقائد التي يدينون بها، (والخلفيات) التي يمتازون بها، فلما كان هرقل والمقوقس يدينان بألوهية المسيح كلياً أو جزئياً، وكونه ابن الله، جاءت في الكتابين اللذين وجّها إليهما كلمة (عبد الله) مع اسم النبي ﷺ صاحب هاتين الرسالتين، فيبتدىء الكتابان بعد التسمية بقوله: (من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم) وبقوله: (من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط) بخلاف ما جاء في كتابه ﷺ إلى كسرى أبرويز، فاكتفى بقوله: (من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس) وجاءت كذلك آية: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٦٤] في هذين الكتابين، وما جاءت في كتابه إلى كسرى أبرويز لأن الآية تخاطب أهل الكتاب الذين دانوا بألوهية المسيح، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وقد كان هرقل امبراطور الدولة البيزنطية والمقوقس حاكم مصر قائدين سياسيين، وزعيمين دينيين كبيرين للعالم المسيحي، مع اختلاف يسير في الاعتقاد في المسيح هل له طبيعة أم طبيعتان [٣].

ولما كان كسرى أبرويز وقومه يعبدون الشمس والنار، ويدينون بوجود إلهين، أحدهما

---

(١) وقد ذهب إلى ما ذهب إليه العلامة الندوي، الدكتور معروف الدواليبي في الأريسيين، يؤيد ما قاله الندوي أن النبي ﷺ إنما عنى بقوله: «فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين» أتباع أريوس الفرق المسيحية الوحيدة القائلة ببشرية المسيح النافية لألوهيته وقد جاء هذا البحث القيم في رسالة: نظرات إسلامية، (ص ٦٨ ـ ٨٣). انظر: السيرة للندوي، (ص ٣٠٧) س.

(٢) انظر: مشكل الآثار (٣/ ٣٩٩).

(٣) انظر: ماذا خسر العالم للندوي، (ص ٣٨ ـ ٣٩).

يمثل الخير وهو يزدان، والثاني يمثل الشر وهو اهرمن، وكانا بعيدين عن مفهوم النبوة والتصور الصحيح للرسالة السماوية، جاءت في الكتاب الذي وجه إلى الامبراطور الإيراني عبارة: (وأني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً) [١].

وقد كان تلقي الملوك لهذه الرسائل يختلف، فأما هرقل والنجاشي والمقوقس فتأدبوا، وتلطفوا في جوابهم وأكرم (النجاشي والمقوقس رسل رسول الله ﷺ، وأرسل المقوقس هدايا منها جاريتان إحداهما مارية أم إبراهيم ابن رسول الله، وأما كسرى أبرويز فلما قُرِىء عليه الكتاب مزقه، وقال: (يكتب إليَّ هذا وهو عبدي؟) فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «مزق الله ملكه» [٢].

وأمر كسرى باذان وهو حاكمه على اليمن بإحضاره، فأرسل بأبويه يقول له: إن ملك الملوك قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فأخبره رسول الله ﷺ بأن الله سلّط على كسرى ابنه شرويه فقتله [٣].

وقد تحقق ما أنبأ به رسول الله بكل دقة، فقد استولى على عرشه ابنه (قباذ) الملقب بـ (شرويه) وقتل كسرى ذليلاً مهاناً بإيعاز منه سنة ٦٢٨ م، وقد تمزّق ملكه بعد وفاته وأصبح لعبة في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة، فلم يعش (شرويه) إلا ستة أشهر، وتوالى على عرشه مدة أربع سنوات عشرة ملوك، واضطرب حبل الدولة إلى أن اجتمع الناس على (يزدجرد) وهو آخر ملوك بني ساسان، وهو الذي واجه الزحف الإسلامي الذي أدّى إلى انقراض الدولة الساسانية، التي دامت وازدهرت أكثر من أربعة قرون انقراضاً كلياً، وكان ذلك في سنة ٦٣٧ م، وهكذا تحققت هذه النبوءة في ظرف ثماني سنين [٤].

٣ ـ الوصف العام لرسائل الرسول:

ويلاحظ الباحث أن الوصف العام لكتب الرسول إلى الملوك والأمراء يكاد يكون واحداً، ويمكننا أن نستخرج منها الأمور التالية:

أ ـ نلاحظ أن جميع كتب الرسول ﷺ التي أرسلها إلى الملوك والرؤساء يفتتحها ﷺ بالبسملة، والبسملة آية من كتاب الله تبارك وتعالى، وفي تصدير الكتاب بها أمور مهمة؛ كاستحباب بدء الكتب بـ «بسم الله الرحمٰن الرحيم» اقتداءً برسولنا محمد ﷺ، فقد واظب عليها في كتبه ﷺ، كما فيها جواز كتابة آية من القرآن الكريم في كتاب، وإن كان هذا الكتاب موجهاً إلى الكافرين، وفيها جواز قراءة الكافر لآية أو أكثر من القرآن الكريم، لأن كتب رسول الله ﷺ

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي، (ص ٢٩٠).
(٢) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٩٠).
(٣) المصدر السابق، (٣/ ٩٠ ـ ٩١).
(٤) انظر: السيرة النبوية للندوي، (ص ٣٠٠).

تضمّنت البسملة وغيرها، وفيها جواز قراءة الجنب لآية أو أكثر من القرآن الكريم لأن هذا الكافر الذي أرسلت إليه الرسالة وتضمّنت البسملة وغيرها لا يحترز من الجنابة والنجاسة فيقرأ الرسالة التي اشتملت على آيات من القرآن الكريم وهو جنب.

ب ـ ونستنبط من رسائل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء الآتي:

● مشروعية إرسال السفراء المسلمين إلى زعماء الكفر، لأن كل كتاب يكتبه الرسول ﷺ يكلف رجلاً من المسلمين يحمله إلى المرسل.

● مشروعية الكتابة إلى الكفار في أمر الدين والدنيا.

● ينبغي أن يكتب في الكتاب اسم المرسل والمرسل إليه، وموضوع الكتاب وهو واحد في جميع الكتب ويتلخص في دعوتهم إلى الإسلام.

●عدم بدء الكافر بتحية الإسلام، وهي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ذلك لأن النبي ﷺ لم يطرح السلام في كتبه على ملك من الملوك، بل كان يصدر كتبه بقوله: السلام على من اتبع الهدى، أي آمن بالإسلام ويؤخذ من هذا عدم جواز مخاطبة الكافر بتحية الإسلام.

● اتخذ الخاتم: فقد كان رسول الله ﷺ يختم رسائله بعد كتابته بخاتمه، وقد كتب عليه ثلاث كلمات، [نقش بهذا الشكل]:

الـــلّـــــه
رســـــــول
مـحـــمـــد[1]

فعن أنس رضي الله عنه قال: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الروم قيل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا أن يكون مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة، فكأني أنظر إلى بياضه في يده، ونقش فيه: محمد رسول الله [2].

٤ ـ تقدير الرجال:

لما أسلم باذان بن ساسان وكان أميراً على اليمن، لم يعزله رسول الله ﷺ بل أبقاه أميراً عليها بعد إسلامه، حيث رأى فيه الإداري الناجح والحاكم المناسب، مما يدلل على أن الرسول ﷺ يقدر الكفاءات في الرجال ويضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ومن الجدير

(١) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس، (ص٢٣٩، ٢٤٠).
(٢) البخاري، باب دعوة اليهود والنصارى ـ فتح الباري (٦/١٠٨).

بالذكر أن الرسول ﷺ قد ولّى ولده شهراً أميراً على اليمن بعد موته [١].

٥ ـ جواز أخذ الجزية من المجوس:

وهذا الحكم استخرج من كتاب النبي ﷺ الذي أرسله إلى المنذر بن ساوى يحدد فيه الموقف من اليهود والمجوس، إذ ورد فيه: «ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية» [٢].

وقد ذهب ابن القيم مع طائفة من العلماء إلى جواز أخذ الجزية من كل إنسان يبذلها، سواء أكان كتابياً أم غير كتابي، كعبدة الأوثان من العرب وغيرهم، فقد جاء في زاد المعاد: (وقد قالت طائفة في الأمم كلها إذا بذلوا الجزية، قبلت منهم؛ أهل الكتابين بالقرآن، والمجوس بالسنّة، ومن عداهم ملحق بهم، لأن المجوس أهل شرك لا كتاب لهم، فأخذها منهم دليل على أخذها من جميع المشركين، وإنما لم يأخذها ﷺ من عبدة الأوثان من العرب لأنهم أسلموا قبل نزوله آية الجزية، فإنها نزلت بعد تبوك) [٣].

٦ ـ جواز أخذ هدية الكافر:

فقد أرسل المقوقس عظيم القبط حاكم مصر مع سفير رسول الله حاطب بن أبي بلتعة وهو كافر، هدية تشتمل على جاريتين وكسوة للرسول ﷺ وبغلة يركبها، فقبلها رسول الله ﷺ، وإحدى هاتين الجاريتين مارية القبطية [٤].

٧ ـ من نتائج إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء:

أظهر الرسول ﷺ في سياسته الخارجية دراسة سياسية فاقت التصور، وأصبحت مثالاً لمن جاء بعده من الخلفاء، كما أظهر ﷺ قوة وشجاعة فائقتين، فلو كان غير رسول الله ﷺ لخشي عاقبة ذلك الأمر، لا سيما أن بعض هذه الكتب قد أرسلت إلى ملوك أقوياء على تخوم بلاده كهرقل وكسرى والمقوقس، ولكن حرص رسول الله وعزيمته على إبلاغ دعوة الله، وإيمانه المطلق بتأييد الله سبحانه وتعالى، كل ذلك دفعه لأن يقدم على ما أقدم عليه، وقد حققت هذه السياسة النتائج الآتية:

أ ـ وطّد الرسول ﷺ بهذه السياسة أسلوباً جديداً في التعامل الدولي لم تكن تعرفه البشرية من قبل.

---

(١) غزوة الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٤٢).
(٢) غزوة الحديبية، (ص ٢٤٢).
(٣) انظر: زاد المعاد (٥/ ٩١).
(٤) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٤٣).

ب ـ أصبحت الدولة الإسلامية لها مكانتها وقوتها وفرضت وجودها على الخارطة الدولية لذلك الزمان.

جـ ـ كشفت للرسول ﷺ نوايا الملوك والأمراء وسياستهم نحوه وحكمهم على دعوته.

د ـ كانت مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبيراً عملياً على عالمية الدعوة الإسلامية، تلك العالمية التي أوضحتها آيات نزلت في العهد المكي مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وهكذا، فإن رسائل النبي ﷺ إلى أمراء العرب والملوك المجاورين لبلاده، تعتبر نقطة تحول في سياسة دولة الرسول الخارجية، فعظم شأنها، وأصبحت لها مكانة دينية وسياسية بين الدول، وذلك قبل فتح مكة، كما أن هذه السياسة مهّدت لتوحيد الرسول ﷺ لسائر أنحاء بلاد العرب في عام الوفود [١].

المبحث الثالث

عمرة القضاء

وفي ذي القعدة في السنة السابعة من الهجرة، خرج الرسول ﷺ إلى مكة قاصداً العمرة، كما اتفق مع قريش في صلح الحديبية، وقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النساء والصبيان، ولم يتخلف من أهل الحديبية إلا من استشهد في خيبر أو مات قبل عمرة القضاء [٢].

وقد اتجه رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام من المدينة باتجاه مكة المكرمة، في موكب مهيب يشق طريقه عبر القرى والبوادي، وكان كلما مرّ الموكب النبوي بمنازل قوم من الذين يسكنون على جانبي الطريق بين مكة والمدينة خرجوا وشاهدوا منظراً لم يألفوه من قبل، حيث المسلمين بزي واحد من الإحرام وهم يرفعون أصواتهم بالتلبية ويسوقون هديهم في علاماته وقلائده، في مظهر بهي لم تشهد المنطقة له مثيلاً [٣].

أولاً: الحيطة والحذر من غدر قريش:

اصطحب النبي ﷺ معه السلاح الكامل، ولم يقتصر على السيوف، تحسباً لكل طارىء قد يقع، خاصة أن المشركين في الغالب لا يحافظون على عهد قطعوه، ولا عقد عقدوه [٤].

---

(١) انظر: التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة، (ص ٣٥١).
(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (ص ٤٦٤).
(٣) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية (ص ٣١٠).
(٤) صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٦٧).

وما أن وصل خبر مسير النبي ﷺ ومعه هذا العدد الضخم، وهذه الأسلحة المتنوعة، وفي مقدمة القافلة مائتا فارس بقيادة محمد بن مسلمة حتى أرسلت إلى رسول الله ﷺ مكرز بن حفص في نفر من قريش، ليستوضحوا حقيقة الأمر، فقابلوه في بطن يأجج [١] بمر الظهران فقالوا له: يا محمد؛ والله ما عرفناك صغيراً ولا كبيراً بالغدر! تدخل بالسلاح الحرم على قومك، وقد شرطت ألا تدخل إلا على العهد، وأنه لن يدخل الحرم غير السيوف في أغمادها، فقال رسول الله ﷺ: «لا ندخلها إلا كذلك»، ثم رجع مكرز مسرعاً بأصحابه إلى مكة فقال: إن محمداً لا يدخل بسلاح وهو على الشرط الذي شرط لكم [٢].

ووضع رسول الله ﷺ السلاح خارج الحرم قريباً منه تحسباً لكل طارىء، وأبقى عنده مائتي فارس بقيادة محمد بن مسلمة يحرسونه وينتظرون أمر الرسول ليتحركوا في أي جهة وينفذوا أي أمر ويقاتلوا متى دعت الضرورة لذلك [٣].

إن النبي ﷺ لم يأمن غدر مشركي قريش وخيانتهم، فقد تسوّل لهم أنفسهم أن ينصبوا كميناً أو أكثر للمسلمين ويشنوا عليهم هجوماً مباغتاً، ولذلك احتاط وأخذ الحذر ووفى بعهده ووعده لقريش وعلّم الأمة لكي تحذر من أعدائها [٤]، وفي بقاء كوكبة من الصحابة في حراسة الأسلحة والعتاد، لكي يراقبوا الموقف بدقة وتحفز معنى من معاني العبادة في هذا الدين [٥].

ثانياً: دخول مكة والطواف والسعي:

ومن بطن يأجج تابع رسول الله ﷺ سيره نحو مكة على راحلته القصواء، فدخلها من الثنية التي تطلعه على الحجون، والمسلمون حوله متوشحون سيوفهم، محدقون به كل جانب، يسترونه من المشركين مخافة أن يؤذوه بشيء، وأصواتهم تعجّ بالتلبية للّه العلي الكبير [٦].

هذه التلبية الجماعية التي تعج أصوات المسلمين بها، والتي لم تنقطع منذ أن أحرموا، واستمرت حتى دخلوا مكة، فقد كان للتلبية مغزى ومعنى، فهي تعلن التوحيد وترفع شعاره، وتعني إبطال الشرك وإسقاط رايته، وتعلن الحمد والثناء على الله الذي مكّنهم من أداء هذا النسك [٧]. . .فهذه بعض معاني تلبية المسلم بقوله: لبيك اللهم لبيك. . . لبيك لا شريك لك لبيك. . . إن الحمد والنعمة لك والملك. . . لا شريك لك.

---

(١) موضع قرب مكة على ثمانية أميال منها.
(٢) انظر: مغازي الواقدي (٣/ ٧٣٤)؛ طبقات ابن سعد (٢/ ١٢١).
(٣) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٦٨).
(٤) المصدر السابق، (ص ٢٧٥).
(٥) المصدر السابق، (ص ٢٧٧).
(٦) انظر: التاريخ السياسي والعسكري (ص ٣٥٣).
(٧) انظر: صلح الحديبية (ص ٢٧٧).

وكان عبد الله بن رواحة آخذاً بزمام راحلته وهو يرتجز بشعره:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... خلوا فكلُّ الخير في رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله ... أعرف حق الله في قبوله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله [١]

وكان مظهراً دعوياً مؤثراً عندما بدأ الموكب النبوي الكريم يقترب من بيوت مكة المكرمة وأبنيتها، شاقاً طريقه باتجاه الكعبة المشرفة وهم في مظهرهم المهيب، وأصواتهم تشق عنان السماء بالتلبية، فقد ذكرت معظم كتب السير والمغازي أن قسماً من أهالي مكة خرج إلى رؤوس الجبال لينظر إلى المسلمين من الأماكن العالية، والقسم الأكبر وقف عند دار الندوة المجاورة للكعبة الشريفة آنذاك، ليشاهدوا رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام أثناء دخولهم مكة المكرمة وبيت الله الحرام [٢].

وكان المشركون قد أطلقوا شائعة ضد المسلمين مفادها أنهم وهنتهم [٣] حُمَّى يثرب فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين [٤]، لكي يرى المشركون قوتهم، ودخل رسول الله ﷺ البيت الحرام واضطبع [٥] بردائه فأخرج عضده اليمنى وشرع في الطواف وأصحابه يتابعونه ويقتدون به، ولما رأى المشركون ذلك قالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا [٦].

وقد قصد رسول الله ﷺ بهذه الطريقة التي فعلها عند دخوله المسجد الحرام، وهي الاضطباع، والهرولة، ورفع الأصوات بالتلبية، أن يرهب قريشاً، وأن يظهر لها قوة المسلمين وعزيمتهم وتمسكهم بدينهم، ومناعة جبهتهم، وقد أثر هذا الأسلوب في نفوس المشركين [٧]، وبهذا الأسلوب النبوي الكريم أغاظ الرسول ﷺ المشركين وكايدهم، فقد كان ﷺ يتقرب إلى الله بمكايدتهم وإغاظتهم، ففي غزوة أحد أذن ﷺ لأبي دجانة أن يمشي متبختراً أمام المشركين لإظهار عزة المؤمن، ولأن ذلك يغيظ المشركين، وزيادة في إغاظتهم كان يلبس العصابة الحمراء دون أن ينكر الرسول ﷺ ذلك.... وفي غزوة الحديبية ساق رسول الله ﷺ في الهدى جمل أبي جهل الذي غنمه في بدر، ليراه المشركون فيزدادوا غيظاً حين يذكرون مصارع قتلاهم وذل

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٤٨١).
(٢) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية (ص ٣١٤).
(٣) أضعفتهم.
(٤) البخاري، كتاب المغازي (٥/٦) رقم (٤٢٥٦).
(٥) الاضطباع: هو أن يدخل بعض ردائه تحت عضده اليمنى ويجعل طرفه على منكبه.
(٦) صحيح السيرة النبوية (ص ٤٨١).
(٧) انظر: منهج الإعلام الإسلامي (ص ٣١٥).

أسراهم، وها هو ذا ﷺ يأمر المسلمين في عمرة القضاء بإظهار التجلد والهرولة لإغاظتهم ومكايدتهم ورد كيدهم في نحورهم [١]، وقد ذكر ابن القيم: (بأن رسول الله ﷺ كان يكيد المشركين بكل ما يستطيع) [٢].

فهذه حرب نفسية شنّها رسول الله ﷺ على المشركين وقد أتت أكلها، ولقد أقام الرسول ﷺ في مكة ثلاثة أيام، ومعه المسلمون يرفعون راية التوحيد، ويطوفون بالبيت العتيق، ويرفعون الأذان ويقيمون الصلاة، ويصلّي بهم رسول الله ﷺ الصلوات الخمس في جماعة، وكان بلال بن رباح بصوته الندي يرفع الأذان من فوق ظهر الكعبة، فكان وقعه على المشركين كالصاعقة [٣].

ولم ينس ﷺ مجموعة الحراس التي كانت تحرس الأسلحة والعتاد بأن يرسل من يقوم بمهمتهم ممن طاف وسعى مكانهم، ويأتي هؤلاء ليؤدوا النسك، فقد كان ﷺ يتعامل مع نفوس يدرك حقيقة شوقها لبيت الله الحرام، وما جاءت للمرة الثانية وقطعت هذه المسافة الشاسعة إلا لتنال هذا الشرف، وتبل هذا الظمأ، فتطوف مع الطائفين وتسعى مع الساعين، فعمل ﷺ على مراعاة النفوس، وساعدها ولبى مطالبها من أجل إصلاحها والرقي بها؛ إنه من منهج النبوة في التربية [٤].

ثالثاً: زواجه ﷺ من أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها:

كانت ميمونة، أخت أم الفضل، زوجة العباس بن عبد المطلب، فتاة في السادسة والعشرين، قد جعلت أمر زواجها بعد وفاة زوجها أبو رهم بن عبد العزى إلى أختها أم الفضل، فجعلته أم الفضل إلى زوجها العباس، فزوجها العباس من ابن أخيه النبي ﷺ، وأصدقها عنه أربعمائة درهم [٥]، وهي خالة عبد الله بن عباس، وخالد بن الوليد، ولمَّا انقضت الثلاثة أيام، التي نص عليها عهد الحديبية، أراد النبي ﷺ أن يتخذ من زواجه من ميمونة وسيلة لزيادة التفاهم بينه وبين قريش، فجاءه سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، موفدين من نفر من قريش فقالوا: إنه قد انقضى أجلك، فاخرج عنا، فقال النبي ﷺ كما ذكر ابن إسحاق: «وما عليكم لو تركتموني، فأعرس بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟»

قالوا: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا [٦].

---

(١) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٨٢).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٧١).
(٣) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٧٠).
(٤) المصدر السابق، (ص ٢٧٧).
(٥) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ٣٢٦).
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٩).

فخرج، وخلف أبا رافع مولاه على ميمونة، حتى أتاه بها بسرف (موضع قرب التنعيم) فبنى بها هناك [١]، وهي آخر من تزوج الرسول ﷺ من نسائه، وآخر من مات من نسائه بعده، وأنها ماتت ودفنت بسرف، فمكان عرسها هو مكان دفنها، فرضي الله عنها وأرضاها [٢].

وفي زواج رسول الله ﷺ بميمونة مسألة فقهية اختلف الفقهاء فيها، وهي: هل تزوج ﷺ بميمونة وهو محرم (عقد نكاحها عليها فقط) أو عقد عليها بعد التحلل [٣]؟ وقد أجاد الفقهاء في تفصيلها.

رابعاً: التحاق بنت حمزة بن عبد المطلب بركب المسلمين:

لقد تغيّرت النفوس والعقول بتأثير الإسلام تغيراً عظيماً، فعادت البنت ـ التي كان يتعيّر بها أشراف العرب، وجرت عادة وأدها في بعض القبائل فراراً من العار، وزهداً في البنات ـ حبيبة يتنافس في تربيتها المسلمون، وكانوا سواسية، لا يرجع بعضهم على بعض إلا بفضل أو حق [٤]، فلما أراد النبي ﷺ الخروج من مكة، تبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم! يا عم! فتناولها علي، فأخذ بيدها وقال لفاطمة رضي الله عنها: دونك ابنة عمك، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر.

قال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي، وقال جعفر: هي ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلي: «أنت مني وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهت خَلْقي وخُلُقي»، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا». وقال علي لزيد: ألا تتزوج بنت حمزة. قال: إنها ابنة أخي من الرضاعة [٥].

وفي هذه القصة دروس وعِبَر وأحكام وفوائد منها:

١ ـ الخالة بمنزلة الأم.

٢ ـ الخالة تقدم على غيرها في الحضانة إذ لم يوجد الأبوان.

٣ ـ تزكية رسول الله ﷺ لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ووصفه له بقوله: «أشبهت خُلقي وخَلْقي».

٤ ـ منقبة علي: تأمل قوله ﷺ: «أنت مني وأنا منك»، والمعنى: أنت مني، وأنا منك في النسب والصهر، والسابقة والمحبة.

٥ ـ منقبة زيد بن حارثة: يقول له الرسول: «أنت أخونا ومولانا»، لأنه كان أخاً لحمزة بن عبد المطلب، فقد آخى الرسول ﷺ بينهما، وهو باجتهاده يريد أن يكون عليه ما على الأخ

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، (٤/ ١٩).
(٢) انظر: هذا الحبيب محمد يا محب، للجزائري (ص ٣٧٥).
(٣) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي (ص ٢٥٨).
(٤) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٢١).
(٥) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٠) رقم (٤٢٥١).

الشقيق من واجبات، والواجب هنا أن يكون ولياً على بنت حمزة ﷺ.

٦ ـ الخالة تقدم على العمة في الحضانة: لقد حكم النبي ﷺ إلى زوجة جعفر بالحضانة وعمتها صفية بنت عبد المطلب حية موجودة.

٧ ـ زواج المرأة لا يسقط حقها في الحضانة: فقد حكم الرسول ﷺ بالحضانة لخالة بنت حمزة وهي متزوجة من جعفر بن أبي طالب ﷺ.

٨ ـ لا بد من موافقة الزوج على حضانة زوجته لابنة أختها، لأن الزوجة محتسبة لمصلحته ومنفعته، والحضانة قد تفوت هذه المصلحة جزئياً، فلا بدّ من استئذانه، ونلاحظ هنا أن جعفر بن أبي طالب قد طالب بحضانة بنت عمه حمزة لخالتها وهي زوجة له، فدل على رضاه بذلك.

٩ ـ إن الطفل إذا رضع مع عمه يصبح أخاً له في الرضاعة، وتصبح بناته كلهن بنات أخيه في الرضاعة، فيحرم عليه نكاحهن [١].

خامساً: أثر عمرة القضاء على الجزيرة وإسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة:

لقد كان تأثير هذه العمرة على قريش وعلى عرب الجزيرة تأثيراً بالغاً، فقد حملت في مضمونها مهمة دعوية عظيمة، ولقد تأثر أهل مكة من هذه العمرة السليمة.

يقول اللواء محمود شيت خطاب: (أثرت عمرة القضاء في هذه الفترة على معنويات قريش تأثيراً كبيراً، فقد وقف الكثير من قريش عند دار الندوة بمكة، كما عسكر آخرون فوق الهضاب المحيطة بها ليشهدوا دخول الرسول ﷺ وأصحابه، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى، ثم قال: «رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة»)، ثم استلم الركن وأخذ يهرول وأصحابه معه. فلم يكد يترك الرسول ﷺ مكة، حتى وقف خالد بن الوليد يقول في جمع من قريش: لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر وأن كلامه من كلام رب العالمين، فحق لكل ذي لب أن يتبعه، وسمع أبو سفيان بما كان من قول خالد بن الوليد، فبعث في طلبه، وسأله عن صحة ما سمع فأكّد له خالد صحته فاندفع أبو سفيان إلى خالد في غضبه، فحجز عنه عكرمة، وكان حاضراً، وقال: مهلاً يا أبا سفيان، فوالله خفتُ للذي خفت أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه، أنتم تقتلون خالداً على رأي رآه، وهذه قريش كلها تبايعت عليه، والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم. وأسلم من بعد خالد بن الوليد عمرو بن العاص، وحارس الكعبة نفسها عثمان بن طلحة؛ بل ظهر الإسلام في كل بيت من قريش سراً وعلانية، وبهذه النتيجة

(١) انظر: زاد المعاد فيه تفصيل كثير (٣/ ٣٧٤، ٣٧٥)، صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٨٦، ٢٨٧).

الطيبة يمكننا القول بأن عمرة القضاء هذه فتحت أبواب قلوب أهل مكة قبل أن يفتح المسلمون أبواب مكة نفسها) [١].

ويقول الأستاذ محمود العقاد: (. . . . وحسبك أن عمرة القضاء هذه قد جمعت في آثارها من أسباب الإقناع بالدعوة المحمدية ما أقنع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وهما في رجاحة العقل والخلق مثلان متكافئان يحتذى بهما) [٢].

١ ـ إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه :

ونترك عمرو بن العاص يحدثنا عن إسلامه حيث قال: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش، كانوا يرون رأيي ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله إني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، وإني قد رأيت أمراً، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي، فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا، فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير، قالوا: إن هذا الرأي، قلت: فاجمعوا لنا ما نهديه له، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم [٣]، فجمعنا له أدماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل عليه، ثم خرج من عنده، قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري، لو دخلت على النجاشي، وسألته إياه فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني أجزأت عنها [٤]، حيث قتلت رسول محمد، قال: فدخلت عليه، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً صديقي، أهديت إليَّ من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم، أيها الملك، قد أهديت إليك أدماً كثيراً، قال: ثم قرّبته إليه فأعجبه واشتهاه ثم قلت له: أيها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال: فغضب، ثم مدّ يده، فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله، قال: قلت: أيها الملك، أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي، وقد حال

---

(١) انظر: الرسول القائد (ص ٢٠٩، ٢١٠).
(٢) انظر: عبقرية محمد (ص ٦٩).
(٣) الأدم: الجلد.
(٤) أجزأت عنها: كفيتها.

رأيي عما كان عليه، وكتمت على أصحابي إسلامي ثم خرجت عامداً إلى رسول الله لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم [١]، وإن الرجل لنبي، أذهب والله فأسلم، فحتى متى؟ قال: قلت: والله ما جئت إلا لأسلم. قال: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، فتقدم خالد بن الوليد، فأسلم، وبايع، ثم دنوت، فقلت: يا رسول الله ﷺ، إني أبايعك على أن يُغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر. قال: فقال رسول الله ﷺ: «يا عمرو، بايع، فإن الإسلام يجبّ ما كان قبله، وإن الهجرة تجبّ ما كان قبلها»، قال: فبايعته ثم انصرفت [٢]. وفي رواية قال: . . . . لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فأبايعك. فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشترط. قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يُغفر لي. قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟». . . .) [٣].

٢ ـ إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه:

وهذا خالد بن الوليد يحدثنا عن قصة إسلامه فيقول: (. . . . لما أراد الله بي من الخير ما أراد قذف في قلبي حُبّ الإسلام وحضرني رشدي، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني مُوضع في غير شيء، وأن محمداً سيظهر، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل المشركين فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعُسْفان، فقمت بإزائه وتعرضت له، فصلّى بأصحابه الظهر آمناً منا، فهممنا أن نغير عليه، ثم لم يُعزَم لنا ـ وكانت فيه خيرة ـ فاطلع على ما في أنفسنا من الهمّ به فصلّى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك مني موقعاً وقلت: الرجل مَمنوع! وافترقنا وعدل عن سَنَن خلينا وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشاً بالحديبية ودافعته قريش بالرّواح قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين المذهب إلى النجاشي؟ قد اتبع محمداً، وأصحابه آمنون عنده، فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية، فأقيم مع عجم تابعاً، أو أقيم في داري فيمن بقي؟ فأنا على ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ عُمرة القضيَّة، فتغيَّبت فلم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عُمرة القضية، فطلبني فلم يجدني فكتب إليَّ كتاباً فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإني لم أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعَقْلُك عَقْلُكَ! ومثل الإسلام جَهَله أحد؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك فقال: «أين خالد؟» فقلت: يأتي الله به؟ فقال: «ما مثله يجهل الإسلام! ولو كان جعل

---

(١) استقام المنسم: تبين الطريق ووضح.

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٤٩٤).

(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله رقم (١٢١).

نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين، لكان خيراً له، ولقدمناه على غيره، فاستدرك يا أخي ما فاتك، فقد فاتتك مواطن صالحة».

قال: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام وسرني مقالة رسول الله. قال خالد: وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة جديبة، فخرجت إلى بلد أخضر واسع، فقلت: إن هذه لرؤيا. . . . فلما قدمت المدينة قلت: لأذكرنَّها لأبي بكر. قال: فذكرتها فقال: هو مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنت فيه من الشرك، فلما أجمعت للخروج إلى رسول الله قلت: من أصاحب إلى رسول الله؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت: يا أبا وهب، أما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن أَكَلَةُ رأس [١]، وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإن شرف محمد على العرب، فأبى أشدَّ الإباء وقال: لو لم يبق غيري من قريش ما اتبعته أبداً فافترقنا، وقلت: هذا رجل موتور يطلب وتراً، قد قُتل أبوه وأخوه ببدر، فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل الذي قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان، قلت: فاطو ما ذكرت قال: لا أذكره. فخرجت إلى منزلي، فأمرت براحلتي، فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة، فقلت: إن هذا لي صديق فلو ذكرت له ما أرجو، ثمّ ذكرت من قُتل من آبائه فكرهتُ أن أذكِّره، ثم قلت: وما عليَّ وأما راحل من ساعتي، فذكرت له ما صار الأمر إليه فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في حجر، لو صُبَّ عليه ذَنوب [٢] من ماء لخرج، قال: وقلت له نحو مما قلت لصاحبيه، فأسرع في الإجابة وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو، وهذه راحلتي بفجّ مناخة، قال: فاتعدت أنا وهو بيأجج، إن سبقني أقام وإن سبقته أقمت عليه، قال: فأدلجنا سحراً فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج، فغدونا حتى انتهينا إلى الهَدَّة، فنجد عمرو بن العاص بها فقال: مرحباً بالقوم فقلنا: وبك! قال: مسيركم؟ قلنا: ما أخرجك؟ قال: فما الذي أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتباع محمد ﷺ، قال: وذلك الذي أقدمني.

قال: فاصطحبْنا جميعاً حتى قدمنا المدينة فأنخنا بظاهر الحرّة ركابنا، فأُخبر بنا رسول الله ﷺ فسُرَّ بنا، فلبست من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ، فلقيني أخي فقال: أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسُرَّ بقدومك وهو ينتظركم، فأسرعت المشي فطلعت عليه، فما زال يتبسم إليّ حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة فرد عليَّ السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: «الحمد للّه الذي هداك! قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير»، قلت: يا رسول الله قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحق فادعُ الله أن يغفرها لي، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام يجبُّ ما كان قبله»، قلت: يا رسول الله، على ذلك؟ فقال: «اللهم اغفر لخالد كل ما أوضع فيه من صدٍّ عن

---

(١) أي هم قليل يشبعهم رأس واحد، وهو جمع آكل.

(٢) الذنوب: الدلو العظيمة.

سبيلك»، قال خالد: وتقدم عمرو، وعثمان، فبايعا رسول الله ﷺ، وكان قدومنا في صفر سنة ثمان، فوالله ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمت يعدل لي أحداً من أصحابه فيما حَزَبه [١]. وفي إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ﷺ دروس ولطائف وعِبَر منها:

أ ـ غضبة النجاشي تدل على صدق إيمانه وحبه لرسول الله ﷺ وحبه للمسلمين، وصدق النجاشي كان له أثر في إيمان عمرو بن العاص ودخوله في الإسلام، وبذلك نال النجاشي أجراً عظيماً حيث جذب إلى الإسلام رجلاً من عظماء قريش [٢].

ب ـ كان إسلام عمرو بن العاص نصراً كبيراً للإسلام والمسلمين، فلقد سخّر عقله الكبير ودهاءه العظيم لصالح دعوة الإسلام، وخسر الكفار بإسلامه خسارة كبيرة لأنهم كانوا يعدونه لعظائم الأمور التي تحتاج إلى دهاء ومقدرة على التأثير، وخاصة فيما يتعلق بعدائهم مع المسلمين [٣].

جـ ـ أدرك خالد بن الوليد أن العاقبة لرسول الله ﷺ وتأمل قوله: لقد شهدت هذه المواطن كلها على محمد، فليس موطن أشهده إلا انصرف وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمداً سيظهر [٤]، وفي هذا عبرة لكل الذين يحاربون الإسلام [٥].

د ـ الاهتمام بالبشر طريق من طرق التأثير عليهم وكسبهم إلى الصف المؤمن ولذلك قال رسول الله للوليد بن الوليد: «ما مثل خالد يجهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ولقدمناه على غيره» [٦]، فكانت لهذه الكلمات البليغة أعظم الأثر في تحول قلب خالد وتوجهه نحو الإسلام، وقد كان رسول الله ﷺ عليماً في مخاطبة النفوس والتأثير عليها، فلقد أدرك مواهب خالد في القيادة والزعامة فوعد بتمكينه من ذلك وتقديمه على غيره في هذا المضمار، ومدح ﷺ سداد رأيه ورجاحة عقله، ونضج فكره، فانتزع ﷺ بهذه الكلمات كل الجوانب التي تجعل خالداً يظل على الشرك الذي لم يكن مقتنعاً به إلا بمقدار ما حصل له فيه من قيادة وتصدر، فلما كان ما هيأه له إذا دخل في الإسلام، واطمأن بأنه لو أسلم لن يكون في آخر القائمة ولن يكون مهملاً، شجعه ذلك على التغلب على وساوس إبليس ورجح ما اطمأنت إليه نفسه من الميل إلى الإسلام فعزم على

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٣٩، ٢٤٠)، التاريخ الإسلامي (٧/ ٩٥).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ٩٠).
(٣) المصدر السابق، (٧/ ٩١).
(٤) انظر: صلح الحديبية لأبي فارس، (ص ٢٦٣).
(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ٩٥).
(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ٩٥).

الدخول فيه، لقد كان إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد قوة للإسلام وضعفاً للشرك، وكتب الله على أيديهما صفحات مشرقة من تاريخ المسلمين الجهادي، أصبحت باقية في ذاكرة الأمة وتاريخها المجيد على مرّ الدهور وكرّ العصور وتوالي الأزمان [١].

المبحث الرابع

سرية مؤتة (٨ هـ)

أولاً: أسبابها وتاريخها:

أشعل عرب الشام فتيل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، فقد دأبت قبيلة كلب من قضاعة التي كانت تنزل على دومة الجندل على مضايقة المسلمين، وحاولت أن تفرض عليهم نوعاً من الحصار الاقتصادي عن طريق إيذائها للتجار الذين كانوا يحملون السلع الضرورية من الشام إلى المدينة، ولذلك غزا رسول الله ﷺ قبيلة كلب بدومة الجندل سنة (٥ هـ)، لكنه وجدهم قد تفرقوا، كما أن رجالاً من جُذام ولخم قطعوا الطريق على دحية بن خليفة الكلبي عند مروره بحسمي بعد إنجازه لمهمة أناطها به رسول الله ﷺ واستلبوا كل ما معه، فكانت سرية زيد بن حارثة إلى حسمي في سنة ٦ هـ، ويضاف إلى ذلك أيضاً ما قامت به قبيلتنا مذحج وقضاعة من اعتداء على زيد بن حارثة وصحبه في العام المذكور (٦ هـ) وذلك عندما ذهبوا إلى وادي القرى في بعثة بغرض الدعوة إلى الله، وبعد صلح الحديبية أخذ هذا المسلك العدواني يأخذ منحنى أكثر خطورة [٢]، بعد مقتل الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله إلى حاكم (بصرى) التابع لحاكم الروم، فقد قام شرحبيل بن عمرو الغساني بضرب عنق رسول رسول الله ولم تجر العادة بقتل الرسل والسفراء، كما أن الحارث بن أبي شمر الغساني حاكم دمشق أساء استقبال مبعوث رسول الله وهدد بإعلان الحرب على المدينة، ثم حدث بعد ذلك بما يزيد قليلاً عن العام أن بعث رسول الله سرية بقيادة عمرو بن كعب الغفاري ليدعو إلى الإسلام في مكان يقال له: (ذات اطلاع) فلم يستجب أهل المنطقة إلى الإسلام وأحاطوا بالدعاة من كل مكان وقاتلوهم حتى قتلوهم جميعاً إلا أميرهم، كان جريحاً فتحامل على جرحه حتى وصل إلى المدينة فأخبر رسول الله ﷺ [٣]، وقد قام نصارى الشام بزعامة الامبراطورية الرومانية بالاعتداءات على من يعتنق الإسلام أو يفكر بذلك، فقد قتلوا والي مَعَان حين أسلم، وقتل والي الشام من أسلم من

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي، (٧ / ٩٥).
(٢) انظر: المسلمون والروم في عصر النبوة، عبد الرحمن أحمد سالم (ص ٨٧).
(٣) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ١٠٣).

عرب الشام [١].

كانت هذه الأحداث المؤلمة ـ وبخاصة مقتل سفير رسول الله الحارث بن عمير الأزدي ـ محركة لنفوس المسلمين، وباعثاً لهم ليضعوا حدًّا لهذه التصرفات النصرانية العدوانية، ويثأروا لإخوانهم في العقيدة الذين سفكت دماؤهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ونبينا محمد رسول الله [٢]، كما أن تأديب عرب الشام التابعين للدولة الرومانية والذين دأبوا على استفزاز المسلمين وتحديهم وارتكاب الجرائم ضد دعاتهم أصبح هدفاً مهماً، لأن تحقيق هذا الهدف معناه فرض هيبة الدولة الإسلامية في تلك المناطق بحيث لا تتكرر مثل هذه الجرائم في المستقبل، وبحيث يأمن الدعاة المسلمون على أنفسهم، ويأمن التجار المترددون بين الشام والمدينة من كل أذى يحول دون وصول السلع الضرورية إلى المدينة [٣].

وفي سنة ٨ هـ أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالتجهيز للقتال، فاستجابوا للأمر النبوي وحشدوا حشوداً لم يحشدوها من قبل، إذ بلغ عدد المقاتلين في هذه السرية ثلاثة آلاف مقاتل، واختار النبي ﷺ للقيادة ثلاثة أمراء على التوالي: زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة [٤]، فقد روى البخاري في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: أمّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة فقال رسول الله ﷺ: «إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة» [٥].

وقد أمر رسول الله ﷺ الجيش الإسلامي أن يأتوا المكان الذي قتل فيه الحارث بن عمير الأزدي رضي الله عنه وأن يدعوا من كان هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا فبها ونعمت، وإن أبوا استعينوا بالله عليهم وقاتلوهم [٦].

وقد زوّد الرسول ﷺ الجيش في هذه السرية وغيرها من السرايا بوصايا تتضمن آداب القتال في الإسلام [٧]، فقد أوصى رسول الله ﷺ أصحابه بقوله: «أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله، في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث: فإما الإسلام، وإما الجزية،

(١) انظر: خاتم النبيين (٢/ ١١٣٩) نقلاً عن الصراع مع الصليبيين لأبي فارس، (ص ٢٠).
(٢) انظر: الصراع مع الصليبيين لأبي فارس، (ص ٢٠).
(٣) انظر: المسلمون والروم في عصر النبوة (ص ٨٩).
(٤) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ٢٠).
(٥) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٢) رقم (٤٢٦١).
(٦) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٧٨٧).
(٧) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ٢١).

وإما الحرب. . . .» [١].

ثانياً: وداع الجيش الإسلامي:

لمَّا تجهَّز الجيش الإسلامي، وأتمَّ استعداده توجّه رسول الله ﷺ والمسلمون يودِّعون الجيش ويرفعون أكف الضراعة لله ـ ﷻ ـ أن ينصر إخوانهم المجاهدين، لقد سلموا عليهم وودعوهم بهذا الدعاء: دفع الله عنكم وردّكم صالحين غانمين [٢].

ولمَّا ودّع الناس عبد الله بن رواحة وسلّموا عليه بكى وانهمرت الدموع من عينيه ساخنة غزيرة، فتعجب الناس من ذلك وقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: والله ما بي حب الدنيا وصبابة، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] ، فلست أدري كيف بي بالصدر بعد الورود، فقال لهم المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردّكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمٰن مغفرة ... وضربة ذات فراغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثي ... أرشده الله من غازٍ وقد رشدا [٣]

وودّع رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة فقال ابن رواحة يخاطب رسول الله ﷺ:

يثبت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا
إني تفرّست فيك الخير نافلة ... فراسة خالفتهم في الذي نظروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر [٤]

ثالثاً: الجيش يصل إلى معان واستشهاد الأمراء الثلاثة:

لمَّا وصل الجيش الإسلامي إلى معان من أرض الشام ـ وهي الآن محافظة من محافظات الأردن ـ بلغه أن النصارى الصليبيين من عرب وعجم قد حشدوا حشوداً ضخمة لقتالهم، إذ حشدت القبائل العربية مائة ألف صليبي من لخم وجذام وبهراء وبلى، وعيّنت لهم قائداً هو مالك بن رافلة، وحشد هرقل مائة ألف نصراني صليبي من الروم فبلغ جيشهم مائتي ألف مقاتل، مزوّدين بالسلاح الكافي يرفلون في الديباج، لينبهر المسلمون بهم وبقوتهم [٥]، ولقد قام المسلمون في معان يومين يتشاورون في التصدي لهذا الحشد الضخم فقال بعضهم: نرسل إلى

---

(١) انظر: المغازي (٢/ ٧٥٧، ٧٥٨).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢١).
(٣) المصدر السابق (٤/ ٢١)
(٤) انظر: مغازي رسول الله لعروة بن الزبير (ص ٢٠٤، ٢٠٥).
(٥) انظر: شرح المواهب اللدنية (٢/ ٢٧١).

رسول الله ﷺ في المدينة نخبره بحشود العدو فإن شاء أمدنا بالمدد وإن شاء أمرنا بالقتال [١]، وقال بعضهم لزيد بن حارثة قائد الجيش: وقد وطئت البلاد وأخفت أهلها، فانصرف، فإنه لا يعدل العافية شيء [٢] ولكن عبد الله بن رواحة حسم الموقف بقوله: (يا قوم، والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون الشهادة! وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة؛ ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا؛ فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة، فألهبت كلماته مشاعر المجاهدين واندفع زيد بن حارثة بالناس إلى منطقة مؤتة جنوب الكرك يسير حيث آثر الاصطدام بالروم هناك، فكانت ملحمة سجّل فيها القادة الثلاثة بطولة عظيمة انتهت باستشهادهم [٣]، فقد استبسل زيد بن حارثة وتوغل في صفوف الأعداء وهو يحمل راية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم [٤].

ثم أخذ الراية جعفر وانبرى يتصدى لجموع المشركين الصليبيين، فكثفوا حملاتهم عليه، وأحاطوا به إحاطة السور بالمعصم، فلم تلن له قناة، ولم تهن له عزيمة، بل استمر في القتال، وزيادة في الإقدام نزل عن فرسه وعقرها، وأخذ ينشد:

يا حبذا الجنة واقترابُها ... طيبة وبارداً شرابُها
والروم روم قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابُها
عليَّ إذ لاقيتها ضرابها [٥]

لقد أخذ رضي الله عنه اللواء بيده اليمنى فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه وانحنى عليه حتى استشهد وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ولقد أُثخن رضي الله عنه بالجراح إذ بلغ عدد جراحه تسعين بين طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم وليس من بينها جرح في ظهره بل كلها في صدره [٦].

روى الإمام البخاري ـ ح ـ في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: كنت في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة أو رمية [٧].

ولقد عوّض الله ـ تبارك وتعالى ـ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأكرمه على شجاعته وتضحيته

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٨٢).
(٢) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (١/ ٣٩٦).
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٦٨).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٥).
(٥) المصدر السابق، (٤/ ٢٦).
(٦) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ٥٨).
(٧) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٢) رقم (٤٢٦١).

بأن جعل له جناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء، فقد روى البخاري في صحيحه بإسناده إلى عامر قال: كان ابن عمر إذا حيا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين [١].

وبعد استشهاد جعفر بن أبي طالب، تسلّم الراية عبد الله بن رواحة الأنصاري ﷺ وامتطى جواده، وهو يقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجْلبَ [٢] الناسُ وشدوا الرَّنَّة [٣] ... مالي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة ... هل أنت إلا نطفة في شنة
يا نفس ألا تُقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صَليتِ
وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلي فِعْلهما هُديت [٤]

ويذكر أن ابن عم لعبد الله بن رواحة قد قدم له قطعة من الحم، وقال له: شد بهذا صلبك، فإنك لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسة، ثم سمع جلبة وزحاماً في جبهة القتال، فقال يخاطب نفسه: وأنت في الدنيا! ثم ألقى قطعة اللحم من يده وتقدم يقاتل العدو حتى استشهد ﷺ وكان ذلك في آخر النهار [٥].

رابعاً: المسلمون يختارون خالد بن الوليد قائداً:

ولما استشهد عبد الله بن رواحة ﷺ وسقطت الراية من يده فالتقطها ثابت بن أقرم بن تعلبة بن عدي بن العجلان البلوي الأنصاري وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد [٦]، وجاء في إمتاع الأسماع أن ثابت بن أقرم نظر إلى خالد بن الوليد فقال: خذ اللواء يا أبا سليمان، فقال: لا آخذه، أنت أحق به، أنت رجل لك سن، فقد شهدت بدراً، فقال ثابت: خذه أيها الرجل فوالله ما أخذته إلا لك، فأخذه خالد بن الوليد ﷺ [٧]، وأصبحت الخطة الأساسية المنوطة بخالد، في تلك الساعة العصيبة من القتال، أن ينقذ المسلمين من الهلاك الجماعي، فبعد أن قدر الموقف واحتمالاته المختلفة قدراً دقيقاً، ودرس ظروف المعركة درساً وافياً وتوقع نتائجها، اقتنع بأن الانسحاب بأقل خسارة ممكنة هو الحل الأفضل، فقوة العدو تبلغ (٦٦) ضعفاً لقوة

(١) البخاري، كتاب المغازي (٥/١٠٣) رقم (٤٢٦٤).
(٢) إن أجْلبَ الناس: صاحوا واجتمعوا.
(٣) الرنة: صوت ترجيع شبه البكاء.
(٤) انظر: السيرة النبويّة لابن هشام (٤/٢٦، ٢٧).
(٥) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ٦١).
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/٢٧).
(٧) انظر: إمتاع الأسماع (١/٣٤٨، ٣٤٩).

المسلمين، فلم يبق أمام هؤلاء إلا الانسحاب المنظم وعلى هذا الأساس وضع خالد الخطة التالية:

أ - الحؤول بين جيش الروم وجيش المسلمين، ليضمن لهذا الأخير سلامة الانسحاب.

ب - لبلوغ هذا الهدف، لا بدّ من تضليل العدو بإيهامه أن مدداً قد ورد إلى جيش المسلمين، فيخفف من ضغطه وهجماته ويتمكن المسلمون من الانسحاب، وصمد خالد حتى المساء عملاً بهذه الخطة، وغيّر، في ظلام الليل، مراكز المقاتلين في جيشه، فاستبدل الميمنة بالميسرة، ومقدمة القلب بالمؤخرة. وفي أثناء عملية الاستبدال اصطنع ضجة صاخبة وجلبة قوية، ثم حمل على العدو، عند الفجر، بهجمات سريعة متتالية وقوية ليُدخل في روعه أن إمدادات كثيرة وصلت إلى المسلمين [١].

ونجحت الخطة، إذ بدا للعدو صباحاً أن الوجوه والرايات التي تواجهه جديدة لم يرها من قبل، وأن المسلمين يقومون بهجمات عنيفة، فأيقن أنهم تلقوا إمدادات، وأن جيشاً جديداً نزل إلى الميدان، وكان البلاء الحسن الذي أبلاه المسلمون قد فتَّ في عضد الروم وحلفائهم، فأدركوا أن إحراز نصر حاسم ونهائي على المسلمين أمر مستحيل، فتخاذلوا وتقاعسوا عن متابعة الهجوم، وضعف نشاطهم واندفاعهم، فخف الضغط عن جيش المسلمين، وانتهز خالد الفرصة فباشر الانسحاب وكانت عملية التراجع التي قام بها خالد في أثناء معركة (مؤتة) من أكثر العمليات في التاريخ العسكري مهارة ونجاحاً، بل إنها تتفق وتتلاءم مع التكتيك الحديث للانسحاب، فقد عمد خالد إلى سحب الجناحين بحماية القلب، ولما أصبح الجناحين بمنأى عن العدو، وفي مأمن منه، عمد إلى سحب القلب بحماية الجناحان، إلى أن تمكن وضمن سلامة الانسحاب كلياً [٢]، ويقول المؤرخون إن خسارة المسلمين لم تتعد الاثني عشر قتيلاً في هذه المعركة، وإن خالداً قال: (لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية) [٣].

ويمكن القول إن خالداً بخطته تلك، قد أنقذ الله المسلمين به من هزيمة ماحقة، وقتل محقق، وأن انسحابه كان قمة النصر بالنسبة إلى ظروف المعركة، حيث يكون الانسحاب، في ظروف مماثلة، أصعب حركات القتال، بل أجداها وأنفعها [٤].

خامساً: معجزة الرسول ﷺ وموقف أهل المدينة من الجيش:

ظهرت معجزة للرسول ﷺ في أمر هذه السرية فقد نعى للمسلمين في المدينة زيداً وجعفر

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٤٧)؛ الواقدي (٢/ ٧٦٤).

(٢) انظر: معارك خالد بن الوليد، د. ياسين سويد (ص ١٧٣).

(٣) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٣) رقم (٤٢٦٦).

(٤) انظر: معارك خالد بن الوليد (ص ١٧٥).

وابن أبي رواحة قبل أن يصل إليه خبرهم، وحزن رسول الله ﷺ لما وقع للسرية وذرفت عيناه الدموع، ثم أخبرهم بتسلم خالد الراية، وبشّرهم بالفتح على يديه وأسماه سيف الله [١]، وبعد ذلك قدم من أخبرهم بأخبار السرية، ولم يزد عما أخبرهم به النبي ﷺ [٢].

ولما دنا الجيش من حول المدينة، تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون ولقيهم الصبيان يشتدون، ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة فقال: «خذوا الصبيان واحملوهم، وأعطوني ابن جعفر»، فأتي بعبد الله، فأخذه، فحمله على يديه، وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فُرّار أفررتم في سبيل الله، ويقول رسول الله ﷺ: «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى» [٣].

وإن الإنسان ليعجب من هذه التربية النبوية التي صنعت من الأطفال الصغار، رجالاً وأبطالاً يرون العودة من المعركة دون شهادة في سبيل الله، فراراً من سبيل الله، لا يكافأون عليه إلا بحثو التراب في وجوههم، فأين شبابنا المتسكعون في الشوارع، من هذه النماذج الرفيعة من الرجولة الفذة المبكرة؟ ولن تستطيع الأمة أن ترتفع إلى هذه الأهداف النبيلة والقمم الشوامخ إلا بالتربية الإسلامية الجادة القائمة على المنهاج النبوي الكريم [٤].

سادساً: دروس وعِبَر وفوائد:

ففي هذه الغزوة دروس وعِبَر كثيرة منها:

١ ـ أهمية هذه المعركة:

تعتبر هذه المعركة من أهم المعارك التي وقعت بين المسلمين وبين النصارى الصليبيين من عرب وعجم، لأنها أول صدام مسلح ذي بال بين الفريقين، وأثرت تلك المعركة على مستقبل الدولة الرومانية، فقد كانت مقدمة لفتح بلاد الشام وتحريرها من الرومان. ونستطيع أن نقول إن تلك الغزوة هي خطوة عملية قام بها النبي ﷺ للقضاء على دولة الروم المتجبرة في بلاد الشام، فقد هز هيبتها من قلوب العرب وأعطت فكرة عن الروح المعنوية العالية عند المسلمين، كما أظهرت ضعف الروح المعنوية في القتال عند الجندي الصليبي النصراني [٥]، وأعطت فرصة للمسلمين للتعرف على حقيقة قوات الروم، ومعرفة أساليبهم في القتال.

٢ ـ حب الشهادة باعث للتضحية:

إن الصبر والثبات والتضحية التي تجلت في كل واحد من الأمراء الثلاثة وسائر الجند، كان

---

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٦٠).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٥٥).
(٣) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٢٨) تاريخ الذهبي (ص ٤٩١).
(٤) انظر: دروس وعِبَر من الجهاد النبوي (ص ٣٥٨).
(٥) انظر: الصراع مع الصليبيين (ص ٦٤).

مبعثها الحرص على ثواب المجاهدين والرغبة في نيل الشهادة، لكي يكرِّمهم الله برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ويدخلوا جنات الله الواسعة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

٣ ـ تميّز هذه المعركة عن سائر المعارك:

فهي الوحيدة التي جاء خبرها من السماء، إذ نعى النبي ﷺ استشهاد الأبطال الثلاثة قبل أن يصل الخبر من أرض المعركة، بل أخبر النبي ﷺ عن أحداثها، وتمتاز أيضاً عن غيرها بأنها الوقعة الوحيدة التي اختار النبي ﷺ لها ثلاثة أمراء على الترتيب: زيد بن حارثة، جعفر بن أبي طالب، عبد الله بن رواحة [١].

٤ ـ إكرام النبي ﷺ لآل جعفر:

لما أصيب جعفر دخل رسول الله ﷺ على أسماء بنت عميس فقال: «ائتني بني جعفر»، فأتت بهم فشمهم وقبّلهم وذرفت عيناه، فقالت أسماء: أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «نعم، أصيبوا هذا اليوم»، فجعلت تصيح وتولول فقال النبي ﷺ: «لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم» [٢]، ونلحظ في هذا الخبر عدة أمور منها:

أ ـ جواز بكاء المرأة على زوجها المتوفى:

أخذ هذا من فعل أسماء بنت عميس رضي الله عنها حينما نعى النبي ﷺ زوجها ومن معه، فبكت وصاحت، فلم ينكر عليها النبي ﷺ، ولم ينهها عن ذلك، ولو كان ممنوعاً لنهاها عن ذلك، والبكاء الذي نهى عنه الإسلام هو ما كان سائداً عند أهل الجاهلية من النواح واللطم وشق الجيوب، والتبرم بقضاء الله وقدره، وما إلى ذلك مما يكون سبباً في معصية الخالق سبحانه.

ب ـ استحباب صنع الطعام لأهل الميت:

وقد ندب الرسول ﷺ الناس أن يصنعوا طعاماً لآل جعفر، وهذا فيه مواساة لأهل المتوفى وتخفيف مصابهم، وفي الوقت نفسه تكافل بينهم، وهذه السنّة خالفتها بعض الشعوب الإسلامية وأصبح أهل الميت يصنعون الطعام للقادمين، وهذا أمر قبيح ينبغي أن يبتعد عنه المسلمون [٣].

هذا وقد نهى رسول الله ﷺ عن البكاء بعد ثلاثة، فقد دخل على أسماء وقال لها: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعوا لي بني أخي» فجيء بهم كأنهم أفرخ، فدعا بالحلاق فحلق

---

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين ص ٦٦.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/٢٨).

(٣) انظر: الصراع مع الصليبيين، (ص ٦٨).

لهم رؤوسهم، ثم قال: «أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب وأما عبد الله فشبيه خَلْقي وخُلُقي» ثم أخذ بيمين عبد الله وقال: «اللهم اخلُف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه» قالها ثلاثاً [١]. ولما ذكرت له أمهم يتمهم وضعفهم قال لها: «العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة» [٢]. وهذا منهج نبوي كريم خطه رسول الله ﷺ لرعاية وتكريم أبناء الشهداء لكي تسير الأمة على نهجه الميمون [٣].

جـ ـ زواج أبي بكر الصديق من أسماء بنت عميس:

وبعد أن انقضت عدة أسماء بنت عميس خطبها أبو بكر الصديق رضي الله عنه فتزوجها، وولدت له محمد بن أبي بكر وبعدما توفي الصديق تزوجها بعده علي بن أبي طالب وولدت له أولاداً رضي الله عنهم وعنها أجمعين [٤].

وقد ذكر ابن كثير أن أسماء بنت عميس رثت زوجها جعفر بن أبي طالب بقصيدة تقول فيها:

فآليت لا تنفك نفسي حزينة ... عليك ولا ينفكُّ جلدي أغبرا
فللّه عينا من رأى مثله فتى ... أكر وأحمر في الهياج وأصبرا [٥]

٥ ـ من فقه القيادة:

إنه درس عظيم يقدمه لنا الصحابي الجليل ثابت بن أقرم العجلاني، عندما أخذ اللواء بعد استشهاد عبد الله بن رواحة آخر الأمراء، وذلك أداء منه للواجب، لأن وقوع الراية معناه هزيمة الجيش، ثم نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائداً، وفي زحمة الأحداث قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل. . . . فاصطلح الناس على خالد.

وفي رواية أن ثابتاً مشى باللواء إلى خالد فقال خالد: لا آخذه منك، أنت أحق به، فقال: والله ما أخذته إلا لك.

إن مضمون كلتا الروايتين واحد، أن ثابتاً جمع المسلمين أولاً وأعطى القوس باريها فأعطى الراية أبا سليمان خالد بن الوليد [٦]، ولم يقبل قول المسلمين: أنت أميرنا. ذلك أنه يرى فيهم من هو أكفأ منه لهذا العمل، وحينما يتولى العمل من ليس له بأهل، فإن الفساد متوقع، والعمل حينما يكون للّه تعالى، لا يكون فيه أثر لحب الشهرة، أو حظ النفس.

إن ثابتاً لم يكن عاجزاً عن قيادة المسلمين ـ وهو ممن حضر بدراً ـ ولكنه رأى من الظلم أن يتولى عملاً وفي المسلمين من هو أجدر به منه، حتى ولو لم يمض على إسلامه أكثر من

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٥٢).
(٢) المصدر السابق، (٤/ ٢٥٢).
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٣٠).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٣).
(٥) المصدر السابق، (٤/ ٣٥٢).
(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٢٤).

ثلاثة أشهر؛ لأن الغاية هي السعي لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن والطريقة الأمثل [١].

إن كثيراً ممّن يتزعمون قيادة الدعوة الإسلامية اليوم يضعون العراقيل أمام الطاقات الجديدة، والقدرات الفذة خوفاً على مكانتهم القيادية، وامتيازاتهم الشخصية، وأطماعهم الدنيوية، فعلى أولئك القادة أن يتَّعظوا من هذا الدرس البليغ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٦ ـ درس نبوي في احترام القيادة:

قال عوف بن مالك الأشجعي ﷺ . . . : خرجت مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ورافقني مَدَديّ من اليمن [٢] . . . . ومضينا فلقينا جموع الروم، فيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهّب وله سلاح مذهب، فجعل الرومي يضرب بالمسلمين، فقعد له المددي خلف صخرة فمرّ به الرومي فعرقب فرسه بسيفه، وفرّ الروميّ، فعلاه بسيفه فقتله وحاز فرسه وسلاحه، فلما فتح الله للمسلمين، بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه بعض السلب، قال عوف: فأتيت خالداً، وقلت له: أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسلب للقاتل؟ قال: بلى، ولكني استكثرته، قلت: لتردنها إليه أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ، فأبى أن يرد عليه.

قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله ﷺ فقصصت عليه قصة المددي وما فعل خالد، فقال رسول الله ﷺ: «يا خالد ما حملك على ما صنعت؟» قال: استكثرته، فقال: «رد عليه الذي أخذت منه».

قال عوف: فقلت: دونكها يا خالد، ألم أوف لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «وما ذلك؟» فأخبرته قال: فغضب رسول الله ﷺ قال: «يا خالد لا ترد عليه، هل أنتم تاركون لي أمرائي، لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره» [٣].

هذا موقف عظيم من النبي ﷺ في حماية القادة والأمراء من أن يتعرضوا للإهانة بسبب الأخطاء التي قد تقع منهم، فهم بشر معرضون للخطأ، فينبغي السعي في إصلاح خطئهم من غير تنقُّص ولا إهانة، فخالد حين يمنع ذلك المجاهد سلبه لم يقصد الإساءة إليه وإنما اجتهد فغلَّب جانب المصلحة العامة، حيث استكثر ذلك السلب على فرد واحد، ورأى أنه إذا دخل في الغنيمة العامة نفع عدداً أكبر من المجاهدين، وعوف بن مالك أدى مهمته في الإنكار على خالد، ثم رفع الأمر إلى رسول الله ﷺ حينما لم يقبل خالد قوله، وكان المفترض أن تكون مهمته قد انتهت بذلك لأنه ـ والحال هذه ـ قد دخل في أمر من أوامر الإصلاح، وقد تم الإصلاح على يده، ولكنه تجاوز هذه المهمة حيث حوَّل القضية من قضية إصلاحية إلى قضية شخصية، فأظهر

---

(١) انظر: من معين السيرة للشامي (ص ٣٧٦).

(٢) مدديّ أي جاء مدداً. وفي رواية: رجل من حمير.

(٣) أبو داود، كتاب الجهاد، رقم (٢٧١٩).

شيئاً من التشفي من خالد، ولم يقره النبي ﷺ على ذلك، بل أنكر عليه إنكاراً شديداً وبيّن حق الولاة على جنودهم، وكون النبي ﷺ أمر خالداً بعدم رد السلب على صاحبه لا يعني أن حق ذلك المجاهد قد ضاع، لأنه لا يمكن أن يأخذ رسول الله ﷺ إنساناً بجريرة غيره، فلا بدّ أن ذلك المجاهد قد حصل منه الرضا، إما بتعويض عن ذلك السلب أو يتنازل منه أو غير ذلك فيما لم يذكر تفصيله في الخبر [١].

إن الأمة التي لا تقدِّر رجالها ولا تحترمهم لا يمكن أن يقوم فيها نظام، إن التربية النبوية استطاعت بناء هذه الأمة بناءً سليماً، ما أحرى المسلمين اليوم أن يكون كل إنسان في مكانه وأن يحترم ويقدَّر، بمقدار ما يقدم لهذا الدين، ويبقى الجميع بعد ذلك في الأطار العام الذي وصف الله به المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي قوله ﷺ: «هل أنتم تاركون لي أمرائي» وسام آخر يضاف إلى خالد رضي الله عنه، حيث عُدَّ من أمراء الرسول ﷺ، وهذا من المنهاج النبوي الكريم في تقدير الرجال [٢].

٧ ـ مقاييس الإيمان وأثرها في المعارك:

توقف الجيش الإسلامي في معان يناقش كثرة جيش العدو، وكانت المقاييس المادية لا تشجّعهم على خوض المعركة، ومع ذلك تابعوا طريقهم ودخلوا بمقاييس إيمانية، فهم خرجوا يطلبون الشهادة فلماذا إذن يفرون مما خرجوا لطلبه.

قال زيد بن أرقم: كنت يتيماً لعبد الله بن رواحة في حجره، فخرج بي في سفره ذلك مُرْدفي على حقيبة رحله، فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته ينشد أبياتاً منها:

وجاء المسلمون وغادروني ... بأرض الشام مُشتهى الثَّواء

فلما سمعتها منه بكيت. قال: فخفقني بالدرة وقال: وما عليك يا لُكَعْ أن يرزقني الله الشهادة وترجع بين شعبتي الرَّحل [٣].

إن التأمل بعمق في غزوة مؤتة يساعدنا في معالجة الهزيمة النفسية والروحية التي تمر بها الأمة، وإقامة الحجة على القائلين بأن سبب هزيمتنا التفوق التكنولوجي لدى الأعداء، لقد سجّل ابن كثير رأيه في هذه المعركة وقال: (.... هذا عظيم جداً أن يقاتل جيشان متعاديان في الدين؛ أحدهما وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله، عدّتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٣٠).
(٢) انظر: معين السيرة (ص ٣٧٨).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٤، ٢٥).

وعدّتها مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف، ومن نصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون، ثم مع هذا كله لا يُقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً، وقد قتل من المشركين خلق كثير، هذا خالد وحده يقول: لقد اندقَّت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية، فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها؟ دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن، وقد تحكموا في عبدة الصلبان عليهم لعائن الرحمٰن في ذلك الزمان وفي كل أوان. . . .) [١].

٨ ـ من شعر كعب بن مالك في بكاء قتلى مؤتة:

حيث قال:

فـي لـيـلـة وردت عـلـيَّ هـمـومـهـا ... طـوراً أحـنُّ [٢] و تـارة أتـمـلْـمَـل [٣]
واعـتـادنـي حُـزنٌ فـبـت كـأنـنـي ... بـيـنَـاتِ نـعـشٍ والـسِّـمـاك مـوكَّـل [٤]
وكـأنـمـا بـيـن الـجـوانـح والـحَـشَـى ... مـمـا تـأوَبـنـي شـهـاب مُـدْخـل [٥]
وجْـداً عـلـى الـنَّـفَـر الـذيـن تَـتَـابـعُـوا ... يـومـاً بـمـؤتـة أسـنـدوا لـم يُـنـقـلـوا
صـلّـى الإلـه عـلـيـهـم مـن فـتـيـة ... وسقى عظامهم الغمام المسبل [٦]
صـبـروا بـمـؤتـة لـلإلـه نـفـوسـهـم ... حـذر الـردى ومـخـافـة أن يَـنْـكُـلُـوا [٧]
فـمـضـوا أمـام الـمـسـلـمـيـن كـأنـهـم ... فُـنُـقٌ عـلـيـهـن الـحـديـد الـمُـرْقَـلُ [٨]
إذ يـهـتـدون بـجـعـفـر ولـوائـه ... قُـدَّام أوَّلِـهـم فـنـعـم الأوّل
حـتـى تـفـرّجـت الـصـفـوف وجـعـفـر ... حيث التقى وعْثُ الصفوف مَجدّل
فـتـغـيـر الـقـمـر الـمـنـيـر لـفـقـده ... والشمس قد كَسفت وكادت تأفِل [٩]

هذه بعض الأبيات التي بكى بها كعب بن مالك شهداء مؤتة ولم يتغيب حسان بن ثابت رضي الله عنه عن نظم القصائد في بكاء قتلى مؤتة، وبكاء جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، فقد كانت المؤسسة الإعلامية تقوم بدورها بتفوق وجدارة، وتتعبد المولى عز وجل بما أخصها به من ملكات ومواهب شعرية فذة.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٥٩).
(٢) أحن: من الحنين وفي رواية أخن: صوت يخرج من الأنف عند البكاء.
(٣) أتململ: أتقلب متبرماً بمضجعي.
(٤) يريد أنه بات يرعى النجوم طول ليله من طول السهاد.
(٥) المدخل: النافذ إلى الداخل.
(٦) المسبل: الممطر.
(٧) صبروا نفوسهم: حبسوها على ما يريدون. ينكلوا: يرجعوا هائبين.
(٨) فُنُقٌ: الفحول من الإبل والمُرقل: الذي تنجر أطرافه على الأرض، يريد أن دروعهم سابغة.
(٩) تأفل: تغيب، السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٣٣، ٣٤).

المبحث الخامس
سرية ذات السلاسل

لم تمض سوى أيام على عودة الجيش من مؤتة إلى المدينة، حتى جهز النبي ﷺ جيشاً بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل، وذلك لتأديب قضاعة التي غرّها ما حدث في مؤتة التي اشتركت إلى جانب الروم، فتجمعت تريد الدنو من المدينة، فتقدم عمرو بن العاص في ديارها ومعه ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، ولما وصل إلى مكان تجمع الأعداء بلغه أن لهم جموعاً كثيرة، فأرسل إلى رسول الله ﷺ يطلب المدد فجاءه مدداً بقيادة أبي عبيدة بن الجراح [١]، وقاتل المسلمين الكفار وتوغل عمرو في ديار قضاعة التي هربت وتفرقت وانهزمت، ونجح عمرو في إرجاع هيبة الإسلام لأطراف الشام، وإرجاع أحلاف المسلمين لصداقتهم الأولى، ودخول قبائل أخرى في حلف المسلمين، وإسلام الكثيرين من بني عبس، وبني مرة، وبني ذبيان، وكذلك فزارة وسيدها عيينة بن حصن في حلف مع المسلمين، وتبعها بنو سُلَيم، وعلى رأسهم العباس بن مرداس، وبنو أشجع وأصبح المسلمون هم الأقوى في شمال بلاد العرب، وإن لم يكن في بلاد العرب جميعها [٢].

دروس وعِبَر وحكم:

وفي هذه السرية دروس وعِبَر وحكم منها:

١ ـ إخلاص عمرو بن العاص رضي الله عنه:

قال عمرو بن العاص: بعث إليَّ رسول الله ﷺ فقال: «خذ عليك ثيابك، وسلاحك، ثم ائتني»، فأتيته، وهو يتوضأ، فصعَّد فيَّ النظر، ثم طأطأ، فقال: «إني أريد أن أبعثك على جيش [٣]، فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك في المال رغبة صالحة»، قال: قلت: يا رسول الله ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح» [٤].

فهذا الموقف يدل على قوة إيمان وصدق وإخلاص عمرو بن العاص للإسلام وحرصه على ملازمة رسول الله ﷺ، وقد بيَّن له رسول الله ﷺ أن المال الحلال نعمة إذا وقع بيد الرجل الصالح، لأنه يبتغي به وجه الله ويصرفه في وجوه الخير ويُعفُّ به نفسه وأسرته [٥].

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٧١).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٣٢).
(٣) جيش سرية ذات السلاسل.
(٤) رواه ابن حبان كما في الموارد (٢٢٧٧)؛ صحيح السيرة (ص ٥٠٨). صححه الألباني صحيح الأدب المفرد.
(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٣٣).

٢ ـ الاتحاد قوة والتنازع ضعف:

عندما وصل المدد الذي بعثه رسول الله ﷺ بقيادة أبي عبيدة بن الجراح لجيش عمرو في ذات السلاسل، أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس ويتقدم عمرو، فقال له عمرو: إنما قدمت عليَّ مدداً لي، وليس لك أن تؤمني، وأنا الأمير، وإنما أرسلك النبي ﷺ إليَّ مدداً، فقال المهاجرون: كلا، بل أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه، فقال عمرو: لا، بل أنتم مدد لنا، فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف وكان حسن الخلق، لين الطبع قال: لتطمئن يا عمرو وتعلمن أن آخر ما عهد إليَّ رسول الله أن قال: «إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا» وإنك والله إن عصيتني، لأطيعنَّك، فأطاع أبو عبيدة، فكان عمرو يصلّي بالناس [١].

لقد أدرك أبو عبيدة رضي الله عنه أن أي اختلاف بين المسلمين في سرية ذات السلاسل يؤدي إلى الفشل، ومن ثم تغلب العدو عليهم، ولهذا سارع إلى قطع النزاع وانضم جندياً تحت إمرة عمرو بن العاص امتثالاً لأمر الرسول ﷺ: «لا تختلفا» [٢].

٣ ـ حرص عمرو بن العاص على سلامة قواته:

ظهرت عبقرية عمرو العسكرية في ذات السلاسل في حرصه على وحدة الصف وفي حرصه على سلامة قوته ويتجلى ذلك في عدة صور منها:

أ ـ أنه كان يسير ليلًا ويختفي نهاراً:

كان عمرو يدرك بثاقب بصره وبعد نظره أن العدو يمكن أن يسعى إلى معرفة أخباره قبل اللقاء بينهما، فيستعد للقاء جيش المسلمين، ولهذا رأى عمرو رضي الله عنه أن السير ليلاً والاختفاء نهاراً هو أفضل أسلوب للمحافظة على قواته وحقق بذلك أمرين مهمين:

- إخفاء تحركاته عن عدوه وبذلك يضمن سلامة قواته.
- حماية الجند من شدة الحرّ وحتى يبقى لهم نشاطهم، فيصلون إلى مكان المواجهة، وهم أقوياء على مجابهة أعدائهم.

ب ـ عدم السماح للجند بإيقاد النار:

عندما طلب الجنود من عمرو أن يسمح لهم بإيقاد النار لحاجتهم الماسة إلى التدفئة، منعهم من ذلك معتمداً في ذلك على خبرته الحربية وعمق فكره العسكري وخوفاً من وقوع مفسدة أعظم من تلك المصلحة، وهي أن يمتد الضوء فيكشف المسلمين ـ وهم قلة ـ لأعدائهم فيهجموا عليهم، ويتجلى هذا الفقه في حزمه الشديد، مع أصحابه عندما كلّمه أبو بكر في ذلك

---

(١) انظر: مغازي رسول الله لعروة (ص ٢٠٧) وأسانيدها ضعيفة.

(٢) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس (ص ٢٠٩).

فقال: لا يوقد أحد منهم ناراً إلا قذفته فيها، فلما رجعوا إلى المدينة ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فسأله رسول الله ﷺ فقال: كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلّتهم [١]، فأقرّه النبي ﷺ على فعله.

جـ ـ منع الجند من مطاردة أعدائهم:

عندما هزم المسلمون أعداءهم طمعوا فيهم، فأرادوا مطاردتهم وتتبع فلولهم، ولكن قائد السرية منع جنده من ذلك لئلا يترتب على هذه المطاردة مفسدة أعظم منها وهي أن يقع المسلمون في كمين، ويتجلى هذا الفقه في قول عمرو بن العاص رضي الله عنه للرسول ﷺ: وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد [٢]، فأقرّه النبي ﷺ على هذا التصرف الحكيم الذي حقق للجيش الأمن والحماية [٣].

٤ ـ من فقه عمرو بن العاص رضي الله عنه:

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت، ثم صلّيت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟» فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النِّساء: ٢٩] . فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً [٤]، وقد استُنبط بعض الأحكام من هذه القصة:

أ ـ التيمم يقوم مقام الغسل بالنسبة للجنب مع وجود الماء إذا خشي أن يؤدي استخدام الماء إلى الضرر، فلقد تيمم عمرو بن العاص لما أصبح جنباً مع وجود الماء عنده وصلّى وأقره الرسول ﷺ ولم ينكر عليه.

ب ـ يجوز الاجتهاد في عهده ﷺ: فقد اجتهد عمرو بن العاص فتوضأ واغتسل وصلّى وقد احتلم في تلك الليلة الباردة اعتماداً على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النِّساء: ٢٩] فلم ينكر عليه الرسول ﷺ اجتهاده بل أقرّه على أمرين: الأول: جواز الاجتهاد، والثاني: تصحيح اجتهاده.

جـ ـ من الأسباب المبيحة للتيمم تعذر استخدام الماء وإن وجد كالبرد الشديد.

د ـ تجوز إمامة المتيمم بالمتوضىء: فقد صلّى عمرو بن العاص، وهو متيمّم إماماً بخمسمائة صحابي قد توضأوا، وأقره الرسول على ذلك ولم ينكر عليه.

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٠٩).
(٢) المصدر السابق، (ص ٥٠٩).
(٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص ٥٤٠).
(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٠٩) قال إبراهيم العلي: الحديث إسناده صحيح.

هـ - اجتهاد عمرو بن العاص يدل على فقهه ووفور عقله، ودقة استنباطه الحكم من دليله [١]؛ ولئن وقف الفقهاء عند هذه الحادثة يفرعون عليها الأحكام فإن الذي يستوقفنا [٢] في السيرة منها تلك السرعة في أخذ عمرو للقرآن وصلته به حتى بات قادراً على فقه الأمور من خلال الآيات وهو لم يمض على إسلامه أربعة أشهر، إنه الحرص على الفقه في دين الله، وقد يكون عمرو - وهذا احتمال وارد - على صلة القرآن قبل إسلامه يتتبع ما يستطيع الوصول إليه، وحينئذٍ نكون أمام مثال آخر من عظمة هذا القرآن الذي لوى أعناق الكافرين، وجعلهم وهم في أشد حالات العداوة لهذا الدين يحاولون استماع هذا القرآن، كما رأينا ذلك في العهد المكي، ويؤيد هذا ما رأيناه من معرفته بالقرآن حينما طلب من النجاشي أن يسأل مهاجري الحبشة عن رأيهم في عيسى (عليه السلام) [٣].

٥ - من نتائج سرايا رسول الله ﷺ في الشمال:

اتجهت حملات المسلمين العسكرية بعد صلح الحديبية نحو الشمال وأصبح غرب الجزيرة وجنوبها الغربي حيث تقبع مكة آمنة في ظلال الصلح [٤]، وحققت سرايا رسول الله ﷺ أهدافها ومقاصدها في شمال الجزيرة، فوصلت إلى حدود الروم، فأمنت حدود الدولة الإسلامية، وبسطت هيبتها وأفشلت محاولات الإغارة على المدينة وبذلك حققت سياسة النبي ﷺ في حركة السرايا هدفين عظيمين هما:

١ - تأمين حماية الدين الإسلامي في الداخل.

٢ - حمايته في الخارج [٥].

وما من شك أن المتتبع لأحداث السيرة النبوية الشريفة والمطَّلع على تفاصيلها ودقائقها بإمعان، يجد بحق أن صلح الحديبية هو من أهم المكاسب السياسية، والعسكرية، والإعلامية، بل هو حصيلة كسب لأعظم معركة دارت بين الإسلام والوثنية في العهد النبوي، من حيث النتائج الإيجابية التي رسخت دعائم الإسلام، من جهة وصدعت بفعلها قواعد الشرك والوثنية من جهة أخرى. وما حدث في خيبر من فتوح، وفي مؤتة من نصر، وفي ذات السلاسل من توسيع هيبة الدولة الإسلامية إلا نتائج تابعة لصلح الحديبية [٦]، وبسبب القدرة الفائقة في تعامل النبي ﷺ مع سنن الله في المجتمعات والشعوب وبناء الدول.

---

(١) انظر: غزوة الحديبية لأبي فارس، (ص ٢١٠).
(٢) القائل هو صالح أحمد الشامي صاحب معين السيرة (ص ٣٨١).
(٣) انظر: معين السيرة (ص ٣٨١).
(٤) انظر: المجتمع المدني للعمري (ص ١٧٠).
(٥) الإعلام في صدر الإسلام، د. عبد اللطيف حمزة (ص ١٧٣).
(٦) انظر: منهج الإعلام الإسلامي، (ص ٣٣٧).